

مجلة

تعنى بموضوعات العلوم الإنسانية والنصوص الأدبية

منهل فكر وثقافة

من موضوعات العدد:



العدد الأول

تشرين الثاني ٢٠٢٠ – ربيع الأول ١٤٤٢



مجلة

تعنى بموضوعات
العلوم الإنسانية
والنصوص الأدبية

نروي لنرتوي منهل فكر وثقافة

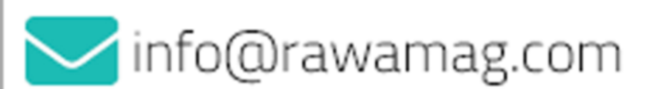
العدد الأول : تشرين الثاني ٢٠٢٠ م – ربيع الأول ١٤٤٢هـ

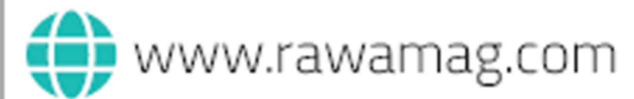
تحرير

عُمـر مَاجد السِّـنَـوي

حَسن طَلال الرمَضاني

rawamag


info@rawamag.com


www.rawamag.com

تتشرَّف المجلَّة باسْتقبال المَقالات الثـقـافيَّة مِن أصـحـابِ الأقـلام الرَّزينة والأفكار الرَّصينة، في مَجـال العُلوم الإنسـانـيَّة، بالإضـافة إلى النُّصوص الأدبيَّة بأجناسِها المتنوِّعة.

محتويات العدد

افتتاحية العدد

الحمد لله الذي خلق فينا أدوات التلقّي والسَّماع، وفطرَنا على حُبِّ الاسْتطلاع، وأرشَدنا إلى مَصارفهِ الحَقَّة، لنَميز الحقيقةَ بدِقَّة، فكانَ أبرزَ مَصارفهِ طلَبُ العِلْم والمَعرفة، فروَى بهِ ظَمأَنا إلى كلِّ ما نحتاجُ إلَيه، ويَظلُّ يَروِي كلَّ مَن يَنهَل منه ويَرِد علَيه.

أما بعد:

فإن المَجلَّات والصُّحُف قديمًا وحديثًا على أصناف: فمنها ذاتُ الحال العبثية الّتي وجودها كعدمه. ومنها ذاتُ الحال الآنية الّتي ما تكاد أن تُقرأ حتى تُركَن، وربما اتَّخذت سبيلها إلى أوضاع أخرى!

ومنها الصحفُ والمجلاتُ الرصينة، فهي تلك الخالدة بما حوته من صفو الفكر وعَذب الأدب ونقاء الثقافة.. ينهل منها الجيل بعد الجيل.. تروي عُطاشَى العلم والأدب، فينعكس رواؤهم منها إلينا، وإلى سلاسل بني آدم من بعد..

وهذا الصنف الأخير هو ما نرجوه لمجلتنا أن تكونه، وما الرجاء بضربٍ من الأمنيات، إنما هو عمل، وبالعمل يتحقق الأمل.

لذا مِن حَقِّ القرَّاء علينا أن نَعِدَهُم بأنَّ مجلَّتهم هذه لن تتنازل عن هذا الوصف، حتى لو لم تَنشر إلا مقالة واحدة، تحافظ بها على مكانتها التي تنبع من

مكانة العلم سموًّا ورِفعة، أو أنْ تُوقِفَ مشوارها بعزةٍ وكرامة، دون أن تهويَ إلى القاع، أو تجاريَ السفَهَ الذي ينبو عنه ما صَحَّ مِن العقول والطباع.

على أنها أيضًا لا تضع الحواجز والحجُب أمام هواة الكتابة والأدب، **الراغبين بنشر مشاركاتهم المتواضعة**؛ فلو لم يجدوا مَن ينشر لهم، لَتَوقَّفوا عن المضي في درب القلم، ولَانْقطعَ سبيلُهم نحو تطوير مهاراتهم وصقل مواهبهم ثم الوصول إلى مصافّ المحترفين..

* * *

ومهما يكن، فإن المجلة **تشترط فيما تنشره من مشاركات**: **أن تتصف بالجدية، والمعالجة الهادفة.. وتنأى عن الاتصاف بالعبثية، أو الاستلاب، أو الاعتداء على الحريات، أو إثارة النعرات الطائفية والقضايا السياسية والغرائز الجنسية وسائر طبائع السوء..**

فالعلم يعني البحث، والبحث أخلاق..

والأدب يعني الجمال، والجمال ذوق..

والعلم أيضًا فكرٌ، والفكر رفعة..

والأدب أيضًا شعور، والشعور ارتقاء..

فما تَحققَ فيه الخُلُقُ الحسن والذوقُ الجميل، كان حقَّه الارتقاءُ والرفعة.

ومن بابة الخُلق الحسَن، فإن أسرة التحرير تزجي الشكر الكبير، لمن تفضل علينا بالمشاركة في هذا العدد البكر، ممن تجاوبوا معنا بخير ما يكون من أمثالهم من أهل الفضل، وقد زادَنا بعضُهُم كرمًا بأن سمحَ أن ننتقي من مقالاته ونصوصه ما نشاء على مر الأعداد القادمة، فلعلنا إن شاء الله ننتقي لقرائنا ما يناسبهم ويسرّ قلوبهم، **على أن تكون تلك المقالات والنصوص لم تأخذ سبيلها إلى نَشرٍ مُماثِل مِن قبل.**

ومن بابة الذوق الجميل، فإننا نستعرض بإيجاز موضوعات هذا العدد مَعَ ذِكر ما تميزت به.

وقد ارتأينا أن نوزع موضوعات المجلة على أربعة أقسام ثابتة، فإن خلا أحدها عن شيء من المشاركات فإنه يُحجَب إلى حين وُرود ما يندرج فيه.

فالأول: للدراسات، والمراد بها المقالات ذات الطابع البحثي، والتحقيق العلمي، وتشمل الدراسات المستقلة، والدراسات المرفقة مع نصوص التراث المحقَّقة.

والثاني: للمقالات، وهي التي تخضع لفنون المقالة ومعاييرها، فكريةً كانت المقالة أو أدبية.

والثالث: لِعالَم الكتُب، وفيه تُنشَر المقالة التي تُعنى بعرض كتابٍ ما، أو تسجيل مراجعة له، أو تقويمه، أو تلخيصه، أو مقارنته، أو نقد طبعة من الطبعات.. وقد يجتمع في المقالة غرضان من هذه أو أكثر.

والقسم الرابع: لنشر النصوص الأدبية، من شعر، وقصة، وخاطرة، ومقامة، وغيرها من الأجناس الأدبية المتنوعة.

* * *

وقد اشتمل القسم الأول من هذا العدد على:

تحقيق منظومة في علل الزحاف، لبرهان الدين القيراطي (ت: ٧٨١هـ)، وهي منظومة لم تُنشر من قبل، تأتي أهميتها من كونها نظمًا لأحد أعيان الشعراء، وأكابر الأدباء، وأفاضل العلماء، ممن كان ولا يزال أدبه حديث الناس، فاحتفوا به، وحرصوا على روايته ودراسته، وهو من تلاميذ شاعر عصره ابن نباتة. كما أنّ أهمية هذه المنظومة تتصل بأهمية موضوعها، إذ إنّ أهمية العلل والزحافات في الشعر، كأهمية الملح في الطعام -كما شبهها المحقق-، فالطباخ الماهر يعرف متى يستعمله، وفي أيِّ طعام يضعه، والمقدار الذي يتطلّبه، والنوع الذي يناسبه؛ فإن لم يكن كذلك أفسده، وهكذا الشاعر يعلم حاجته منها، وما تُكسِب شِعرَه من جمال، وما تُوصله من أحاسيس.

واشتمل هذا القسم أيضًا على دراسة أعدّها الأستاذ البحاثة عادل العوضي، عن المدرسة الفخرية ببغداد وعن آثار صاحبها فخر الدولة ابن المطلب بصورة عامة، فجاءت دراسة عزيزة، لحقبة تاريخية غنية بالأحداث المهمة وبالشخصيات المرموقة، وقد زودها بصور توضيحية لخرائط الأماكن.

كما اشتمل هذا القسم على دراسة أعدها الأستاذ صفاء البياتي، تتحدّث عن أثَر الأعْرافِ الإداريَّةِ في شُيوعِ الأخْطاءِ اللُّغويِّة، حيث يَشيع في بعض الخطابات الرسمية صيغ وعبارات هي محلُّ نظر ونقد في ميزان اللغة العربية والتركيب السليم، ومن هنا رأى الباحث أن ينبه على إحدى هذه النماذج الشائعة في الخطابات الرسمية وهي عبارة (نرجو) و(يُرجى).

ومما اشتمل عليه هذا القسم من الدراسات: بحثٌ أعده فضيلة الدكتور عبد الباري الأنصاري، عن الفرق في المعنى بين كسر الخاء من كلمة (خطة) وبين ضمّها. ذلك أن هذا المصطلح يُستخدم بكثرة في الساحة البحثية والأكاديمية، فيُطلَق على الورقةَ العلمية الَّتي يتقدَّمُ بها الباحثُ، وتتضمَّن وصفَ مشروع بحثه الَّذي يرغبُ في العمل عليه؛ فأبان فضيلته عن أوجه كل منها في الاستعمال، وعن النطق الصواب لهذا المصطلح الذي يُستخدم اليوم.

ومن الدراسات في هذا القسم: مبحث أعدّه عضو أسرة التحرير الأستاذ حسن الرمضاني، متعلق بمباحث علم الدلالة، وهو عن استعمال جذر (ق.و.م) بدلالة السَّكَن، واقتصر فيه على نماذجه الواردة في القرآن الكريم.

أما المشاركات الواردة في القسم الثاني من هذا العدد:

فأوّلها مقالة للشاعر العراقي الكبير الدكتور وليد الصراف، ناسبَ أن نصدّر بها القسم لمناسبتها واقع الساحة الثقافية الذي تُعنى المجلةُ بمعالجته.

ومن المشاركات في هذا القسم مقالة للأستاذ علي حسين، يتحدث فيها عن أصناف الناس من حيث مواقفهم من الدين والمتديّنين، وركَّز الحديث عن فئة سمّاها: الفِئة المتمدِّنة، فأحسنَ التوصيفَ والتشخيص، كما أحسنَ في الإشارة إلى العلاج، من واقع تجربته الشخصية.

ومن المشاركات في هذا القسم مقالة للأستاذ ياسين نزال، يعالج فيها مسألة التغيير الذاتي -التي تهم كل فرد منا- وذلك عَن طريق ما أسماه: أودية الهلاك والاستهلاك، وهو مدخل ذكي يحمل القارئ على التساؤل عن ماهية هذه الأودية؟ وما علاقتها بالتغيير الذاتي؟

ومن المشاركات في هذا القسم مقالة للعالم الكبير والمحقق الخبير الأستاذ عبد العزيز الساوري، يتحدث فيها عن بقايا مخطوطات المدرسَتَين البغداديتيَن: النظامية والمستنصرية، كشف فيها عن وجود عشرات المخطوطات اليوم تعود إلى إحدى هاتين المدرستَين، وهي مخطوطات تتوزع اليوم على عدة مكتبات من مكتبات العالَم الخاصة والعامة.

ومن المشاركات في هذا القسم مقالة للأستاذ الشيخ مختار الطيباوي، يتحدث فيها عن المعرفة، وليس عن أي معرفة، وإنما عن المعرفة من المستوى الأول، المستوى الرفيع، المستوى الذي ينهض بهذه الأمة.

ومن المشاركات القيمة في هذا القسم مقالة للأستاذ الدكتور غسان عبد الخالق، تحدث فيها سعادتُه عن فئة من الكتاب والنقاد والمفكرين، وصفَهم

بأنهم متقاعدون، لا من حيث الحقيقة الوظيفية، وإنما من حيث ما آلتْ إليه أحوالهم في ظل انتشار مواقع التواصل الاجتماعي الإلكترونية!

ومن المشاركات في هذا القسم مقالة للشيخ رعد الحياني، يتساءل فيها عن سبب كون مدينة الموصل العريقة هي مدينة العلم والعلماء؟ ولو أردنا أن نُمْعن في التاريخ أكثر، لوجدنا الموصل أعظم من مجرد كونها مدينة للعلم والعلماء، فهي أرض الأنبياء، والحضارات.

ومن المشاركات في هذا القسم مقالة نفيسة للدكتور شوقي المعرِّي، يتحدث فيها عن مقومات التعليم، من خلال التركيز على أركانه الثلاثة: الطالب، والمعلّم، والمنهاج؛ فأتى في هذه المقالة على جُلّ ما يريد البوح به كلُّ تربوي يهتم لأمر التعليم وهو ينظر إلى الانحطاط الذي أصابه!

ومن المشاركات في هذا القسم مقالة عظيمة لسعادة الدكتور عزمي عبد البديع، يُبرز فيها شيئًا من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، بأسلوبه الشيق، ونظرته البلاغية النقدية الثاقبة.

ومن المشاركات المهمة في هذا القسم مقالة لفضيلة الدكتور محمود الزهيري، يتحدث فيها عن أثر النقد في الشعر، كاشفًا عن أهمية النقد وعلو مكانة النقاد، وعن كون الأدب والنقد رفيقان مختصمان، لكنهما في خصومة شريفة، يُعلِي كلاهما من شأن اللغة والذوق والفكر.

وأما القسم الثالث (عالَم الكُتب)؛ فاحتوى على مقالَتَين، الأولى دوَّنها الأستاذ الدكتور عبد الحكيم الأنيس، حَول يوميّات محقِّق، وهو الشيخ أحمد محمد شاكر، الذي أخرَجَ يومياتِه الأستاذُ أشرف عبد المقصود؛ فكانت المقالةُ فيها عرض وتحليل مقتَضَبان، ولم يُخلِها من نقده العالي.

والمقالة الأخرى دوَّنها الدكتور عبد الله الشمراني، ليكشف فيها عن أهمية معجم من المعجمات العربية الذائعة الصيت: معجم الفيروزابادي المسمى (القاموس المحيط).

وأما القسم الأخير المتعلق بالنصوص الأدبية؛ فقد شرّفَنا بالمشاركة فيه ثلة من الأدباء: الأستاذ الكبير حسان الحديثي، من خلال حكايته المشوقة: (عند باب الشيخ محمد)، وقصيدَتان في مديح خير البرية سيدنا محمد -عليه الصلاة والسلام- بمناسبة شهر ربيع الأول الأنور، إحداهما للأستاذ الجليل عامر الرقيبة، والأخرى للدكتور الفاضل محمد غسان الخليلي، إضافة إلى قصة القاصة العراقية صفا عاطف، التي زيّنت هذا العدد بسردها البديع.

راجين -في آخر المطاف- أن نكون قد حققنا ما نصبو إليه من تقديم ثقافة أصيلة وفكر رصين وأدب جميل.

أسرة التحرير


روى
نروي لنرتوي

الدراسات



مَنْظُومَةٌ فِي عِلَلِ الزّحَافِ

لِبُرْهان الدِّين القِيراطِيّ (ت: ٧٨١هـ)

تَقديم وتَحقيق:

عُمَر مَاجِد السِّنَويّ

صادَفَني أثناء العمَل في مَخطوطةٍ مِن مَخطوطات عِلْم العَروض، أنّها اشتملَتْ على عدَدٍ مِن الاسْتشهادات، وعندَ الوصول إلى مرحلة تخريجها، كنتُ أجد عددًا منها يعود إلى كتابٍ أو جزءٍ ما يزال في عداد الكتب المخطوطة، حبيسة الخزائن، بعيدة المنال، أو عسيرة المطالعة والتداول.

حينها أدركتُ حجم التقصير الحاصل في العناية بالتراث العربي المخطوط في مجال عِلم العَروض، وهو عِلمٌ عربي خالص، للعلماء فيه نظَرات وآراء وتحقيقات علمية دقيقة، وما زال التطوير فيه إلى يومنا هذا قائمًا على ساقه.

من هنا تأتي أهمية العناية بتراث هذا العِلم وأهله، فلا يكون التطوير حقيقيًّا في أيِّ علمٍ كان، إلا بعد إشباع القديم بحثًا ودراسة.

وبين أيدينا اليوم أثرٌ تراثيٌّ جليل لِعالمٍ نبيل في فَنٍّ جميل، لقيَ بعضَ العناية ممّن جاء بعده، وعن طريق هذه العناية وصلَ إلينا، وإلّا كان من جملة

ما ضاع ممّا ضاع من تراثنا العظيم على أيدي الغاصِبين أو الجُهّال، أو جَرّاء الكوارث والإهمال.

تَعريفُها:

هذا الأثر هو منظومة شعرية مِن نظْم برهان الدين القيراطي، بَناها على بحر البسيط، وجعل حَرفَ رَويّها هاءً مضمومة، وعدد أبياتها ستة عشر بيتًا. وليس يُعرَف لهذه المنظومة اسمٌ أو عنوان، إلا ما قيل في موضوعها، وهو: (علل الزحاف) وبخاصة الزحاف المنفرد.

هذه المنظومة وقفتُ عليها ابتداءً أثناء عملي في تحقيق كتاب «المقصد الوافي بالعَروض والقوافي» لشهاب الدين القازاني (من أعلام القرن الحادي عشر الهجري)، إذْ أورَدَها كاملةً في الباب الأول من كتابه، وقام بشرحها وتتميمها بثمانية أبيات.

وحين أردتُ توثيق المنظومة، لم أتمكن من العثور عليها في أيّ كتاب سابق -في حدود اطلاعي وبحثي-، ولكني وجدتُها مفردةً في ورقة مخطوطة ضمن مجموعٍ خطيّ؛ فلمّا طالعتُها وجدتُها تشتمل على الأبيات التي ذكرها القازاني إضافة إلى تتمتها الّتي أتمَّها هو في كتابه، ونَسبَها الناسخُ كلَّها إلى القيراطي.

والمَخطوطة لا يتجاوزُ تاريخُ كتابتها الربعَ الأول من القرن الثالث عشر الهجري، أي بعد القازاني بزمن، وهذا ما يرجّح أنها مستلّة من كتابه إمّا مباشرةً

أو بواسطة، ولم ينتبه ناسخُها إلى أنّ التتمة من نظم القازاني لا القيراطي.

ومع ذلك فإنني في هذا التحقيق أُوردُها مع تَتِمَّتها كما في المخطوطة، لتتمّ الفائدة بذكر علل الزحاف كاملةً، مع الاستفادة من بعض ألفاظ القازاني في التقديم والتختيم والتتميم، كي يميز القارئ بين ما هو للقيراطي وما هو للقازاني.

نِسبَتُها:

هذه المنظومة لم يَذكُرها أحدٌ مِن المترجِمين للقيراطي، ولعلَّ السبب أنها لم تكن في أصْلِ وَضْعِها مستقلّةً، فلَربّما كانت في رسالةٍ ما، أو ضِمْن جوابٍ لطالبٍ، أو أنّها من بعض أماليه.

وليست هي مما تضمّنَه ديوانه «مطلع النيرين» الذي جمَع فيه شعره ونثره، ولا أعلمُها في كتابه الآخَر المسمّى «الوشاح المفصل»، كما لم أجدها فيما نقلَه عنه أصحابُ التراجم من مقطّعات ومراسلات. وله قصائد متفرقة محفوظة في بعض خزائن المخطوطات، إلا أنّ مَن يُطالع فهارسها يجد أغلب موضوعاتها تتعلّق بالمديح النبوي.

وقد وصلتْ هذه المنظومة إلى يد القازاني بطريقة نجهلها، وصار هو العمدة في نسبتها إلى القيراطي، بتصريحه وتأكيده.

مَوضوعُها:

تقدَّم القول أنَّ موضوعَها هو (علل الزحاف)، ولا يُعرَف أنّ أحدًا أفردها

في نظم أو أو جزء قبل القيراطي، ثم جاء بَعدَه بِزمَن: بَحرَق الحَضرميّ (ت: ٩٣٠هـ) فنظَمَ أرجوزةً لِحصر علَل الزحاف جميعِها، في عشرين بيتًا، وهي ضمن المجموع الخطي نفسه الّذي به منظومة القيراطي، ثم توالت المنظومات والمصنفات في ذلك من بعدهما.

والزحافات والعلل يُقصَد بها في مصطلح العروضيين بإجْمالٍ: أنها التغييرات الحادثة في تفعيلات البيت الشعري[1].

وسُمِّي الزحاف من الزحف، أي: المشي قليلًا قليلًا إلى الشيء، أو المشي الثقيل؛ فكذلك الزحاف في الشعر إذْ يَسقط مما بين حرفين حرفٌ فيزحف أحدهما إلى الآخر[2].

والعروضيون يفرّقون بين الزحاف والعلّة، إلا أنها جاءت في المنظومةِ جملةً واحدة. والفرقُ بينهما بإيجازٍ: أنّ الزحاف لا يُلتزَم في سائر الأبيات، ولهذا قد يوجَد في أيِّ تفعيلة من تفعيلات البيت بما فيها عَروضه وضَربه. وأمّا العلّة فإنّها تُلتزَم في سائر الأبيات، وتكون في عَروض البيت أو ضَربه، أو في كليهما. ومن الزحافات ما يُلتزَم، فيكون جاريًا مجرى العلّة، ومن العلل ما لا يُلتزَم فيجري مجرى الزحاف[3].

---

(١) ومِن أحسنِ تعريفاتها ما سطّره ابن رشيق القيرواني في كتابه: **العمدة** (١٣٨/١)، فليُراجَع.

(٢) يُنظَر: **تفسير الرازي** (ص١١٠)، **ولسان العرب** (٢٠/٧).

(٣) يُنظَر على -سبيل المثال- كتاب: **علم العروض والقافية**، لعبد العزيز عتيق (ص١٧٠-١٨٨).

والزحاف على قسمين: منفرد ومزدوج؛ فالمنفرد: ما كان في مَوضِعٍ واحدٍ من التفعيلة، والمزدوج: اجتماع اثنتين من الزحافات المنفردة في تفعيلة واحدة(١).

وعلل الزحاف المنفرد الّتي ذكرها القيراطي هي بحسب ورودها: الخبن، والطي، والقبض، والكف، والإضمار، والعضب، والوقف، والخرم، والوقص، والعقل، والكسف، والحذف، والقصر، والقطع، والتشعيث، والحذ، والصلم.

واستدركَ عليه القازاني من المنفرد: القطف.

أما علل الزحاف المزدوج فقد ذكرَها القازاني تتميمًا، وهي بحسب ورودها: الشَّكْل، والنقص، والخبل، والبتر، والثرم، والقضم، والجمم، والعقص، والخرب، والشتر.

أهميتها:

إن أهمية هذه المنظومة تتصل ابتداءً بأهمية موضوعها، إذ إنّ أهمية العلل والزحافات في الشعر، كأهمية الملح في الطعام، فالطباخ الماهر يعرف متى يستعمله، وفي أيّ طعام يضعه، والمقدار الذي يتطلّبه، والنوع الذي يناسبه؛ فإن لم يكن كذلك أفسده، وهكذا الشاعر الحقّ، فإنه يعلم حاجته من هذه العلل والزحافات، وما تُكسِب شِعرَه من جماليّات، وما تُوصله إلى المتلقّي من أحاسيس وإيحاءات.

---

(١) وقد أحسنَ القازانيُّ تفصيلَ ذلك في الباب الأول من كتابه: **المقصد الوافي بالعروض والقوافي**.

والأهمية الأخرى لهذه المنظومة أنها من نظم أحد أعيان الشعراء، وأكابر الأدباء، وأفاضل العلماء، حتى صار أدبه حديث الناس، فاحتفوا به، وحرصوا على روايته ودراسته.

ناظِمُها[(١)]:

هو أبو إسحاق، برهان الدين إبراهيم، ابن شرف الدين عبد الله بن محمد بن عسكر، الطائي، الطريفي، الشافعي، الشهير بالقيراطي نسبة إلى قيراط، وهي بلدة بالشرقية من أعمال الديار المصرية، والطريفي فخذ من قبيلة طيء.

وُلِد ليلة الأحد، الحادي والعشرين من شهر صفر، سنة (٧٢٦هـ)، ونشأ بالقاهرة، وحفظ القرآن الكريم، وطلب العلم، ولازم علماء عصره، إلى أن برع في الفقه والأصول والعربية، وأبوه شرف الدين هو مفتي الشافعية في زمانه.

تتلمذ على أبيه، وعلى شاعر عصره ابن نباتة، وعلى ابن شاهد الجيش، وابن ملوك، وابن السراج، وابن السديد الإربلي، وأحمد بن علي المستولي، وتقي الدين السبكي، وغيرهم.

---

(١) تَرجَم له: تقي الدين الفاسي في: **العقد الثمين** (٣/٢١٧-٢١٨)، وفي: **تعريف ذوي العُلا** (ص٢٨٧-٢٨٨)، وابن حجر العسقلاني في: **إنباء الغمر** (١/٢٠٠)، وفي: **الدرر الكامنة** (١/٣٢-٣٣)، وابن تغري بردي في: **المنهل الصافي** (١/٨٩-٩١)، وفي: **النجوم الزاهرة** (١١/١٩٨)، وجلال الدين السيوطي في: **حُسن المحاضرة** (١/٥٧٢)، وابن العماد الحنبلي في: **شذرات الذهب** (٦/٢٦٩).

ويبدو أنَّ ترجمته سقطت مما وصلَ إلينا مِن كتاب «**طبقات الشافعية الكبرى**» لِعَصريّه تاج الدين السبكي، ولم يتبقَّ منها سوى الرسائل المتبادلة، وقد استغرقت عشرات الصفحات (٩/٣١٤-٣٩٨).

أما تلامذته، فمنهم: القاضي عزّ الدّين ابن جماعة، والقاضي تقي الدّين ابن رافع، والإمام ابْن الجَزْرِي، والحافظ زين الدين العراقي، وابنه وليّ الدّين العراقي، ونور الدين الهيثمي، وبدر الدّين البشتكي، وجمال الدّين ابْن ظهيرة، ونجم الدّين المرْجانِي، وتَقِيّ الدّين الفاسي، وَآخَرُون.

وله مطارحات ومدائح ومراسلات مع عددٍ من أعلام عصره، منهم: تاج الدّين السبكي، والصفدي، وناظر الجيش، وكثير.

وقد عُني به جماعة من أهل العلم، فانتخَب ابنُ حجر العسقلاني من ديوانه روائعَ أودعها الجزء السادس والعشرين من أجزاء تذكرته الأدبيّة[1]، وكذلك فعلَ ابن حجة الحموي فانتخب من شعره ما استجاده في كتاب مفرد سمّاه «تحرير القيراطي»[2].

من مؤلفاته: «مطلع النيرين» وهو ديوانه الذي جمع فيه نظمه ونثره، وقد طُبع بمصر قديمًا سنة (١٢٩٦هـ). وكتابه الآخر: «الوشاح المفصل»، وهو مجموع أدبيّ، منه نسخة بمكتبة غوتا، بألمانيا، رقمها: (٢١٦٨)، وقد ذكرَ الزركليّ أنه مطبوع[3]، ولكن لم أعثر له على أثَر أو معلومة تُذكر، إلا أنه حُقِق حديثًا في

(١) يُنظَر: **الجواهر والدرر**، للسخاوي (٧٧١/٢). وتذكرته الأدبية موسوعة كبيرة، بعضها مفقود، والآخر ما زال في عالم المخطوط.

(٢) له أكثر من نسخة، منها: نسخة بمكتبة كلية الدراسات الشرقية، سان بطرسبورغ، رقم (٨٣٢). ونسختان بمكتبة الدولة، برلين، رقم (٧٨٦٩) و(٧٨٧٠).

(٣) يُنظر: **الأعلام**، للزركلي (٤٩/١).

بعض الجامعات المصرية.

ولم يعمَّر القيراطي كثيرًا، فقد توفي وهو في الخامسة والخمسين من عمره، ليلة الجمعة، العشرين من شهر ربيع الآخر، سنة (٧٨١هـ)، وكان مجاورًا بمكة المكرمة، ودُفِن فيها بالمعلاة بعد صلاة الجمعة.

قال عنه تقي الدين الفاسي[١]: «أديب مصر المشهور... له النظم الرائق، والنثر الفائق، مع المشاركة الحسنة في فنون من العلم».

وقال ابن حجة الحموي[٢]: «طالعتُ ديوان الشيخ الإمام القدوة العلامة برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم القيراطي، وحرّرته بميزان العقل تحرير الذهب، فوجدته قد مازج القطر النباتي بحلاوة ما حرّكه من نكت الأدب...».

وقال عنه ابن حجر العسقلاني[٣]: «عينُ الديار المصرية... مَهَرَ فِي الْآدَاب، وَقَالَ الشّعْرَ فَفاق أهلَ زَمَانِهِ، وسلَك طَرِيق الشَّيْخ جَمال الدّين ابْنِ نباتة وتلْمذ لَهُ وراسلَه».

وقال عنه شمس الدين النواجي[٤]: «شيخ الشيوخ برهان الدين القيراطي».

وقال عنه ابن تغري بردي[٥]: «الشيخ الإمام العالم العلامة برهان الدين

---

(١) **العقد الثمين**، للفاسي (١/١٣٧-١٣٨).

(٢) **قهوة الإنشاء**، لابن حجة الحموي (ص٤٩٣).

(٣) **الدرر الكامنة**، لابن حجر (١/٣٢-٣٣).

(٤) **الشفاء في بديع الاكتفاء**، للنواجي (ص٨٦).

(٥) **المنهل الصافي**، لابن تغري بردي (١/٨٩-٩١).

ابن مفتي المسلمين شرف الدين، الأديب الشاعر المشهور... كان له النظم الرائق والنثر الفائق... هو شاعر عصره بعد الشيخ جمال الدين بن نباتة، وأقرب الناس إليه من دون تلامذته ومعاصريه من شعراء عصره... فإنه أدقّ، وأحلى وأرشق».

وقال عنه السيوطي[١]: « البارع المفنن... فاق في النظم والشعر».

وقال عنه ابن العماد الحنبلي[٢]: «الشاعر المشهور... تَعانى النّظم، ففاق فيه».

نُسَخُها:

١. للمنظومة نسخةٌ من مخفوظات مكتبة جامعة أم القرى بمكّة المكرّمة، وهي متاحة على موقعها الإلكتروني، وتحمل الرقم المرجعيّ (416;13020-2)، وتقع ضمن مجموعة خطيّة مرقّمة الصفحات، وهي فيها في الصفحة (٤٣). وناسخها: محمد بن صلاح بن علي مشحم، وتاريخ نسخها لم يصرّح به، ولكن بالمقارنة مع ما صرّح به فيما قبلها وما بعدها فيبدو أنها نُسخت سنة (١٢٢٠هـ). وفي حاشيتها أوردَ الناسخُ خمسة أبيات من نظم المقرّي في استخراج الضمير. ويظهر أنّ ناسخها غير بصيرٍ بعِلم العَروض، فتصحفت عنده بعض المصطلحات دون أن ينتبه إليها.

وقد رمزتُ لهذه النسخة بـ(ق).

---

(١) **حُسن المحاضرة**، للسيوطي (٥٧٢/١).

(٢) **شذرات الذهب**، لابن العماد (٢٦٩/٦).

ولم تكن العمدة على هذه النسخة فحسب، لأن فيها خطأ في نسبة أبيات التتمة إلى القيراطي دون الإشارة إلى صاحبها القازاني، فلذلك اعتمدتُ أيضًا على نُسخَتَي كتاب القازاني: «المقصد الوافي بالعروض والقوافي»، حيث أورد فيها أبيات القيراطي، وشرحَها، ثمَّ تمَّمَها. وهاتَين النسختَين هما:

٢. نسخة مكتبة أمبروزيانا، بميلانو الإيطالية، وتقع ضمن مجموعة خطيّة أيضًا، وتحمل الرقم (E33)، وهي فيها من (ل ١١٠) إلى (ل ١٣٤). وتاريخ نسخِها ما بين عامَي (١٠٧٤-١٠٨٤هـ)، وهي من تصوير معهد المخطوطات العربية/ الكويت، سنة (١٤١٠هـ)، وهي نسخة تامة، ونصّها أجود من غيرها.

وقد رمزتُ لهذه النسخة بـ(م).

٣. نسخة مكتبة جامعة الملك سعود (الرياض سابقًا)، وهي تحمل الرقم (٢٧٤٤)، وتقع في عشر لوحات، وقد كان الفراغ من نسخها في الخامس عشر من محرم، سنة (١٢٧٩هـ). وهي نسخة عليها حواش فيها شرح ومقابلة تدلّ على أنها كانت محلّ مُدراسة، ولكنها نسخة ناقصة حُذِفَ منها الباب الثاني جميعه.

وقد رمزتُ لهذه النسخة بـ(س).

تَحقِيقُها:

لمَّا كانت هذه المنظومة ذات تخصص دقيق في بابها، لم تكن هناك حاجة إلى تفسيرها وإكثار التعليق عليها في الحاشية، لأنها موجَّهة إلى أهل الاختصاص،

لذلك اكتفيتُ بإيراد نَصِّها فحسب، وذلك باعتماد طريقة النصّ المختار، فلم أعتمد نسخةً محدَّدة في المتن، بل أثبَتُّ فيه ما أراه أقرب إلى الصواب.

وقد تَلخَّص عملي في النقاط التالية:

١. قمتُ بنسخ النص ومقابلته على سائر النُّسَخ، وضبطه وتشكيله، ورسمه بحسب قواعد الإملاء المتعارف عليها، ووضعتُ للأبيات أرقامًا لغايات تسهيل القراءة والإحالة.

٢. أشرتُ إلى ما كان مِن اختلافٍ بين النُّسَخ في الحاشية.

٣. حاولتُ أن أُبرزَ حُسنَ الترتيب الذي انتهَجَه الناظم، وذلك بوضع بعض العنونة في أثناء النصّ، وحصرتُها بين معكوفتين.

٤. قدّمتُ بين يدي النصّ بمقدمة أحسبها وافية في التعريف بالمَنظومة ومَوضوعِها ونُسَخِها، والتعريف بصاحبها.

سائلًا اللهَ التوفيق والسداد، وأن يجعل هذا العمل نافعًا مقبولًا.

[نموذج نسخة (ق)]

[نموذج نسخة (م) فيه مطلع المنظومة وبعض الأبيات]

[نموذج نسخة (س) فيه مطلع المنظومة وبعض الأبيات]

النَّصُّ المُحقَّق:

[قالَ شِهابُ الدّين القازانيُّ]: وَقَدْ نَظَمَ الزِّحافَ المُنفَرِدَ بُرهانُ الدِّينِ القِيراطِيُّ، وَنَظَمْتُ المُزْدوِجَ بَعْدَهُ عَلَى أُسْلُوبِهِ، جَعَلَها -رَحِمَهُ اللهُ- فِي خَمْسَةَ عَشَرَ بَيْتًا، فَقَالَ:

١. يَا طَالبًا لِزحَافِ الشِّعْرِ مَعْرِفَةً   أَنَا الَّذِي عِنْدَهُ مِنْهُ جَوامِعُهُ

[ما يُحذَف منه ساكِن]:

٢. حَذْفُ السَّواكِنِ فِي الأَسْبَابِ أَرْبَعَةٌ   مِنْ كُلِّ جُزْءٍ[1] فَمَا تَخْفَى مَواقِعُهُ

٣. فَالخَبْنُ ثَانِيهِ وَالطَّيُّ رَابِعُهُ   وَالقَبضُ خَامِسُهُ والكَفُّ سَابِعُهُ

[ما يُسكّن منه متحرّك]:

٤. وَكُلُّ مَا أَسْكَنوهُ لِلزِّحافِ بِهِ   ثَلاثَةٌ كُلُّهَا تُسْمَى مَواضِعُهُ

٥. فَثانِي الجُزْءِ إِضْمَارٌ وَخَامِسُهُ   عَصْبٌ[2] وَسَابِعُهُ الإِيقافُ مَانِعُهُ

[ما يُحذَف منه متحرّك]:

٦. وَالخَرْمُ إِسْقاطُ حَرْفٍ مُبْتَدَا وَتَدٍ   مِنْ أَوَّلِ البَيْتِ مَعْرُوفٌ شَرائِعُهُ

٧. وَلِلْفُصُولِ تَزاحِيفٌ تَخُصُّ بِهَا   فَلْيَسْتَمِعْ كُلُّ مَا قَدْ قَالَ سَامِعُهُ

٨. فَالوَقْصُ إِسْقَاطُكَ الثَّانِي المُحَرَّكُ ثُمْـ   ـمَ الْعَقْلُ خَامِسُهُ وَالْكَسْفُ[3] سَابِعُهُ

---

(١) في (ق): (حَرفٍ)، وهو تصحيف.

(٢) في (ق): (عصب) بوضع علامة الإهمال على الصاد، وكلاهما جائز.

(٣) في (ق): (الكشف)، وهو تصحيف.

[ما يُحذَف منه سببٌ خفيف]:

٩. والحَذْفُ عِنْدَهُمُ أَنْ يَحْذِفُوا سَبَبًا مِنْ آخِرِ البَيْتِ[١] حَذْفًا لَا يُراجِعُهُ

[ما يُحذَف منه ويُسكّن]:

١٠. وَالْقَصْرُ فِي سَبَبٍ إِسْقاطُ سَاكِنِهِ لَكِنْ يُسَكَّنُ مَعْ ذَيَّاكَ تَابِعُهُ
١١. وَالْقَطْعُ فِي الْوَتَدِ الْمَجْموعِ عِنْدَهُمُ كالْقَصْرِ فَهْوَ عَلَى هَذَا يُضَارِعُهُ
١٢. وَإِنْ تَأَخَّرَ كانَ الْقَطْعُ تَسْمِيَةً وَإِنْ تَوَسَّطَ فالتَّشْعِيثُ[٢] قاطِعُهُ

[ما يُحذَف منه وتدٌ مجموع]:

١٣. وَالْحَذُّ فِي الْوَتَدِ الْمَجْموعِ حَذْفُهُمُ لَهُ وَمَا أَنَا فِيمَا قُلْتُ بَادِعُهُ

[ما يُحذَف منه وتدٌ مفروق]:

١٤. وَالصَّلْمُ فِي الْوَتَدِ الْمَفْروقِ عِنْدَهُمُ كالْحَذِّ شَابَهَ مَصْلُومًا[٣] مَسَامِعُهُ
١٥. هَذَا زِحافُ جَمِيعِ الأَصْلِ عِنْدَهُمُ لَا غَيْرَ ذَيَّاكَ نَابِيهِ وَشائعُهُ
١٦. إِلَّا الَّذِي لِاخْتِصارِ الجَمْعِ قَدْ وَضَعُوا وَقَدْ أَجادَ لَعَمْرُ اللهِ واضِعُهُ

[آخِرُ نَظْمِ القِيرَاطِيّ]

(١) في (ق): (الشطر)، وهو خطأ.

(٢) في (ق): (التشعيب)، وهو تصحيف.

(٣) في (ق): (ملصومًا)، ولعله سبق قلم.

[قالَ شِهابُ الدّين القازانيُّ]: لَمَّا نَظَمَ القِيراطِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- الزِّحافَ المُفْرَدَ، نَظَمْتُ لِلْمُزْدَوِجِ عَلَى وَزْنِ قَصِيدَتِهِ ثَمَانِيَةُ أَبْياتٍ، فَقُلْتُ:

١٧. وَلِازْدِواجِ[(١)] زِحَافٍ بَعْدَها وَضَعُوا   أَسْماءَ كَيْ لَا لَهُ تَخْلُو مَواضِعُهُ
١٨. فَالْخَبْنُ إِنْ يَجْتَمِعْ بِالْكَفِّ قِيلَ لَهُ   شَكْلٌ وَهَذَا ازْدِوَاجٌ قَلَّ مَانِعُهُ
١٩. وَالْعَصْبُ وَالْكَفُّ نَقْصٌ لَا خِلافَ بِهِ   وَالطَّيُّ والضَّمْرُ خَزْلٌ قَامَ وَاقِعُهُ
٢٠. وَالْخَبْنُ وَالطَّيُّ خَبْلٌ حَيْثُما اجْتَمَعَا[(٢)]   وَالْحَذْفُ وَالْقَطْعُ بَتْرٌ قَالَ صَانِعُهُ
٢١. وَالْخَرْمُ وَالْقَبْضُ ثَرْمٌ حِينَ يَجْتَمِعَا   وَالْخَرْمُ وَالعَصْبُ قَصْمٌ[(٤)] لَاحَ طَابِعُهُ
٢٢. وَالْخَرْمُ وَالْعَقْلُ سَمِّ جَمِيعَها جَمَمًا[(٣)]   وَالْخَرْمُ وَالنَّقْصُ عَقْصٌ دَانَ شَاسِعُهُ
٢٣. وَالْكَفُّ وَالْخَرْمُ خَرْبٌ لَا يُزايِلُهُ   وَالْخَرْمُ وَالقَبْضُ شَتْرٌ لَا يُمانِعُهُ

[قالَ شِهابُ الدّين القازانيُّ]:فَهَذَا الزِّحافُ المُزْدَوِجُ جَمِيعُهُ، وَبَقِيَ مِن المُفْرَداتِ القَطْفُ، وَقَدْ قُلْتُ فِيهِ[(٥)]:

٢٤. وَالْقَطْفُ إِسْكانُ مَا قَدْ حَذَّ مِنْ سَبَبٍ   وَقَبْلَهُ يَدْخُلُ التَّسْكِينُ سَابِعُهُ

تَمَّتْ

---

(١) في (ق) و(س): (والازدواج)، والمعنى به لا يستقيم.

(٢) في (ق) و(س): (حين يجتمعا).

(٣) في (ق): (وَالْخَرْمُ وَالْعَقْلُ جَمَم إنْ هُما اجْتَمَعَا)، وفي (س): (وَالْخَرْمُ وَالْعَقْلُ جَمٌّ إنْ هُما اجْتَمَعَا).

(٤) في (ق): (قصم) بوضع علامة الإهمال على الصاد، وهو تصحيف.

(٥) مِن بعد قوله: (وبقي) إلى (في) بياضٌ في نسخة (م).

مَصادر التحقيق ومَراجعه:

١. **الأعلام**: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، (٢٠٠٢م).

٢. **إنباء الغمر بأبناء العمر**: ابن حجر العسقلاني، ت:حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، (١٩٦٩م).

٣. **تعريف ذوي العُلا بمن لم يذكره الذهبي من النبلا**: تقي الدين الفاسي، ت: محمود الأرناؤوط وأكرم البوشي، دار صادر، بيروت، ط١، (١٩٩٨م).

٤. **التفسير الكبير**: فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٠٠٤م).

٥. **الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر**: شمس الدين السخاوي، ت: إبراهيم باجس، دار ابن حزم، بيروت، ط١، (١٩٩٩م).

٦. **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**: جلال الدين السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط١، (١٩٦٧م).

٧. **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: ابن حجر العسقلاني، ت: محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد، ط٢، (١٩٧٢م).

٨. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**: ابن العماد العَكري الحنبلي، ت: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط، (١٩٨٦م).

٩. **الشفاء في بديع الاكتفاء**: شمس الدين النواجي، ت: محمود أبو ناجي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط١، (١٤٠٣هـ).

١٠. **طبقات الشافعية الكبرى**: تاج الدين السبكي، ت: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر، الرياض، ط٢، (١٤١٣هـ).

١١. **العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين**: تقي الدين الفاسي، ت: محمد حامد الفقي وآخرين، مؤسسة

الرسالة، بيروت، (١٩٨٦م).

١٢. **علم العروض والقافية**: عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٨٧م).

١٣. **العمدة في محاسن الشعر**: ابن رشيق القيرواني، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت، ط٥، (١٩٨١م).

١٤. **قهوة الإنشاء**: ابن حجة الحموي، ت: محمد العزازي، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٠١٩م).

١٥. **لسان العرب**: ابن منظور، دار صادر، بيروت، (٢٠٠٣م).

١٦. **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**: يوسف بن تغري بردي، ت: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (١٩٨٤م).

١٧. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: يوسف بن تغري بردي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، (د.ت).

المدرسة الفخرية ببغداد وآثار فخر الدولة ابن المطلب

إعداد:
عادل عبد الرحيم العوضي

كانتْ بغدادُ العاصمةَ العِلميَّـةَ للعـالَم، فـهيَ أمُّ المَـدارس ومَجْمـعُ دُور العِلْم، فقد اهتمَّ بها خلفاءُ البيـت العبـاسي منـذ اتخاذهـا عاصـمةً لدولتهـم، وبقيتْ بغداد محافظةً على منزلتها العلمية، حيثُ كان الخلفاء يولون العلْمَ جُلَّ اهتمامِهم، فظهرَ فيها العديدُ من العلماء، والجوامـع، والمَـدارس، والزاويـات، والمَكتبات، وكانتْ لكلِّ مَدرسةٍ مكتبـةٌ غنيـةٌ، إلا أنَّ مُعظـم تلـك المَـدارس وغيرُها لمْ يبقَ منها شَيء.

ومِن تلكَ المَدارس الَّتي ظهرتْ في العصر العباسي: (المدرسة الفخرية)[١]، وتسمَّى أيضًا (مدرسة دار الذهب) أو (مدرسة فخر الدولة)، والخانقاه[٢] التابعة لها.

١) وبالاسم نفسه هناك مدارس عديدة في العالم الإسلامي (في الموصل، ودمشق، والقدس، والقاهرة، ونابلس، ومكة، وتبريز، وبومباي وغيرها).

٢) كلمة فارسية استخدمت في العصر الإسلامي بمعنى الرباط أو الزاوية التي يعتكف فيها العبَّاد للعبادة والذكر، ظهرت في العراق في حدود القرن الرابع الهجري. انظر: **خطط المقريزي** (٢/٤١٤).

• **المؤسِّس**[١]:

مؤسس هذه المدرسة هو: الحسن بن هبة الله بن محمد بن علي بن المُطَّلِب، الكرمانيُّ ثمَّ البغداديُّ، الوزيرُ، فخرُ الدولة، أبو المظفَّر، ابن الوزير أبي المعالي[٢] -وزيرُ الخليفة المستظهر بالله-.

ومولده سنة إحدى وتسعين وأربعمئة (٤٩١هـ).

وهو من بيتٍ مشهور بالتقدم والرئاسة، وكان مع ذلك زاهدًا تاركًا لأمور الدنيا وتولِّي الولايات، وأُريدَ أن يلي الوزارة فلم يفعل، ومالَ إلى التصوُّف وجعل داره رباطًا للصوفيّة، وكانَ حسنَ السيرة، كثير الخير، كثير العبادة، وكان يعتكف نصف السنة لا يخرج إلى أحد ولا يجتمع بأحد.

وكان مقبول القول ذا حرمة عظيمة وكان الخليفة يُقعده بين يديه ويحدثه ولا يجلس عنده أحد، وما كان يتخلف عن خدمته أحد من أرباب الدولة، وكذلك جميع أرباب العلم والأدب والتصوف وسائر طبقات الناس.

---

١) مترجَم في: **مرآة الزمان** (٢٨٨/٢١)، **ومجمع الآداب في معجم الألقاب** (٧/٣)، **وذيل تاريخ مدينة السلام** (١٤٤/٣)، **والكامل** (٤٩١/١١)، **والوافي في الوفيات** (٢٩١/١٢)، **وتاريخ الإسلام** (٦١١/١٢)، وغيرها.

٢) مجد الدين أبو المعالي هبة الله البغداديّ -الكرمانيّ الأصل-، ذكره محبّ الدين بن النجّار وقال: "وليَ ديوانَ الزمام في أيّام الإمام المقتدي بأمر الله، ثمّ في أيّام ولده الإمام المستظهر بالله، ثمّ قلّده المستظهر الوزارة في سنة خمسمئة فأقام وزيرًا سنتين وأربعة عشر أيّامًا ثم عُزل. قال شجاع بن فارس الذهلي: مات الوزير أبو المعالي يوم الأحد ثاني شوّال سنة ثلاث وخمسمئة، ومولده سنة أربعين وأربعمئة". **مجمع الآداب في معجم الألقاب** (٥٤٦/٤-٥٤٧). وهو مترجَم في: **المنتظم والكامل والفخري** (ص٣٠٠)، **وسير أعلام النبلاء** (٣٨٤/١٩-٣٢٥) ولقبه بمجير الدين، ولقبه ابن الأثير بمجد الدين في موضعين من "**الكامل**"، ولم يذكر ابن الجوزي لقبه وكذا ابن الطقطقي. وأرّخ الذهبي وفاته بسنة (٥٠٩هـ).

وكان كثير المال والأملاك والضياع، وكانت له آثار كثيرة في بغداد، وأوقف عليها من أملاكه ما يُصرف في عمارتها وتكون مؤنة من يكون فيها، وأوقف عدة نواحي وبساتين على ابنته، ولم يكن له ولد سواها، وشرط عليها إن تزوجت لا تستحق شيئًا من هذا الوقف وأكَّد الوصية إلى نائب الوزارة بذلك.

سمعَ في صِباهُ مِن أبي الحسَن ابن العلاف (ت ٥٠٥هـ)، و أبي علي محمد بن سعيد بن نبهان الكاتب (ت ٥١١هـ)، وقرأ الأدبَ على أبي بكر بن جوامرد القطان (ت ٥١١هـ).

وحدَّث باليسير بعدَ جهدٍ شديدٍ وامتناعٍ، وكانَ عسرًا في الرواية.

وقد سمع منه تاج الإسلام أبو سعد السمعاني (ت ٥٦٢هـ) بعد سنة (٥٣٠هـ) بيسير وذكرَه في "تاريخه"، والحافظ أبو الفضل أحمد بن صالح بن شافع الجيلي (ت ٥٦٥)، والقاضي عمر بن علي القرشي (ت ٥٧٥هـ).

ويبدو أنه كان قد أُخرِجَ من بغداد وصودرت أملاكه، لأنَّ بعض المؤرخين ذكرَ في حوادث سنة (٥٦٦هـ) رجوعه إلى بغداد في شهر ربيع الآخر ورُدَّت عليه أملاكه[1].

وتوفي في شوال سنة (٥٧٨هـ)، وحُمل إلى جامع القصر، وتقدم الخليفة بفتحه له لأن جامع القصر لا يفتح لميت إلا بإذن شريف، وحضر جميع أرباب الدولة ونائب الوزارة، وتقدم في الصلاة عليه في خَلقٍ كَثير الخطيبُ أبو جعفر ابن المهتدي بالله، ودفن بالجانب الغربي بالجامع الذي بناه على دجلة، وله شباك

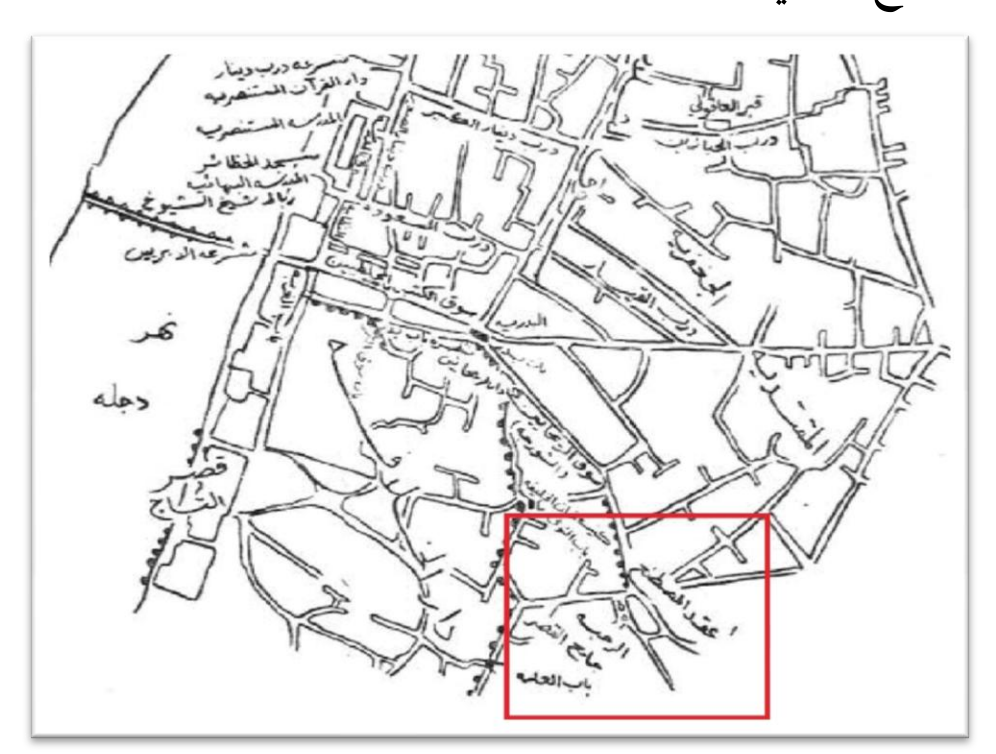
---

١) المنتظم (١٩١/١٨).

يشرف على النهر، وفي سنة (٦٤٧هـ) نُقلَ جثمانه من مدفنه بالإيوان الذي في جامعه على شاطئ دجلة حيث وقع حائطه، إلى مشهد موسى بن جعفر، تولى نقله النواب الذين ينظرون في وقوفه، وأرادوا نقله إلى موضع في الجامع فلم يجوِّز الفقهاء ذلك، وذلك بعد نيفٍ وستين سنة من موته[١].

ولفخر الدولة الكرماني ببغداد آثارٌ كثيرة جميلة، منها:

- **الجامع الشرقي:**



هذا الجامع كان مقره في عقد المصطنع[٢] شمال محلة المأمونية[٣] في

---

١) انظر: **كتاب الحوادث** (ص٢٨٦).

٢) عقد المصطنع: باب عظيم في وسط المدينة، وينسب إلى المصطنع أبو نصر منصور بن طاس الديلمي ثمّ البغدادي الحاجب، قيل أنه استحجب للخليفة ولقب المصطنع.

انظر: **بغداد في مجلة لغة العرب** (ص١٦٢)، **ومجمع الآداب** (١/٥٠٤)، (٥/٢٤٧).

٣) المأمونية: محلة كبيرة طويلة عريضة ببغداد بين نهر المعلّى وباب الأزج عامرة آهلة منسوبة إلى

الجانب الشرقي للمدينة، شرقي جامع القصر تمامًا[١].



وبيَّن الدكتور عماد عبد السلام مَوقعَه حاليًا فقال: "هو اليوم عند ملتقى درب الشورجة في الشرق من جامع سوق الغزل، بعقد القشل الممتد جنوبًا إلى باب الشيخ والهيناوبين والسويدان وما إلى ذلك [المأمونية وباب الأزج] والممتد شمالًا إلى أبي سيفين [درب النهر] أي في المحلة المسماة بقاضي الحاجات تمامًا، ولا يستطاع تحديد موضع المدرسة أكثر من هذا، على أنه يفهم مما ذكره ابن الجوزي أنها كانت إلى عقد المأمونية أقرب، أي في الجنوب قليلًا

الخليفة المأمون عبد الله ابن هارون الرشيد. انظر: **معجم البلدان** (٥/٤٤). والمأمونية كانت في أرض الدهانة وصبابيغ الآل والهيتاويين وعقد القشل من المحلاّت الحالية ببغداد. اهـ من كلام محقق **مجمع الآداب في معجم الألقاب** (٢/١٢٨)، وانظر: **الأصول التاريخية لمحلات بغداد** (ص٣٥، ٥٠-٥٣، ٨٥).

١) ويعرف حاليًا باسم جامع الخلفاء. وانظر كلام محقق كتاب **خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد** (ص٢٠٠)، وتعقُّبهِ مؤلفَ الكتاب في تفريقه بين جامع الخلفاء وجامع القصر.

من عقد المصطنع المذكور"[١].

وكان افتتاح الجامع سنة (٥٦٨هـ)، وسلمه منشؤه إلى العلّامة يحي بن فضلان شيخ الشافعية ببغداد[٢].

- **المدرسة ومكتبتها:**

لم يكن جامع فخر الدولة في الجهة الشرقية جامعًا فحسب، بل يشتمل على مدرسة يرتادها طلبة العلم، وكان ابتداء التدريس فيها في ربيع الآخر عام (٥٦٨هـ)[٣]، فقد درَّس فيها يحي بن فضلان المتقدِّم ذِكره، وقد ذَكر ابنُ المستوفي أنَّ المدرسة بُنيت خصيصًا له[٤]، ثم درَّس فيها ابنه **محمد** (ت ٦٣١هـ) مِن بعده[٥].

وكان بالمدرسة خزانة كتب جامعة لأنواع العلوم، أوقفَ عليها فخر الدولة الوقوف الجليلة[٦].

---

١) **مدارس بغداد** (ص١٠٨).

٢) هو يحي بن علي بن الفضل بن هبة الله بن بركة العلامة جمال الدين أبو القاسم البغدادي وُلِد فِي آخر سنة (٥١٥هـ)، وكان اسمه واثق، وكذا هُوَ فِي الطِّباق، ولكنْ غلب عليه يحي واختاره هُو، وكان إماما بارِعًا فِي عِلم الخلاف، مشارًا إليه فِي جودة النَّظَر، تفقَّه على أَبِي مَنْصُور الرّزّاز، وارتحلَ إِلَى صاحب الغزاليّ مُحَمَّد بْن يحي مرَّتين، وعلَّق عَنْهُ، وظهر فضله، واشتهر اسمه، وانتفع به خلْق، ودرَّس ببغداد بمدرسة دار الذَّهَب وغيرها، وتُوُفّي سنة (٥٩٥هـ)، وابن فضلان لقب جده الفضل.

انظر: **تاريخ الإسلام** (١٠٥٠/١٢)، **طبقات الشافعية** لابن كثير (٧٦٥/٢).

٣) **المنتظم** (٢٠٠/١٨).

٤) انظر: **تاريخ إربل** (٣٠٣/٢).

٥) انظر: **كتاب الحوادث** (ص٩٠-٩١).

٦) انظر: **مجمع الآداب في معجم الألقاب** (٧/٣).

وممن وُجِدَ لهم ذِكر في التاريخ من الأعلام الذين لهم علاقة بهذه المدرسة: أبو علي ابن الخوام الحكيم (ت ٧٢٤هـ)، فقد قام بترميم المدرسة ونظّم أوقافها وتبرَّع لها بكتب كثيرة أيام تولّيه الإشراف عليها[١].

وكانت المدرسة مخصصة لعلوم المذهب الشافعي، إلا أنه لاحقًا أُضيفت إليها علوم أخرى.

ومِن أشهر القصص الَّتي تُذكر في كتب التاريخ وفيها ذِكرٌ للمدرسة: ما جاء في ترجمة عبد الرَّشيد بن عبد الرَّزّاق الكرْجي الصُّوفي (ت ٥٨٦هـ)، قال سبط ابن الجوزي: "كان يتفقَّه ببغداد بدار الذَّهب، وكان وَرِعًا عاملًا عابدًا، وكان ببغداد رجلٌ يقال له: النَّفيس الصُّوفي، يضحك منه ويسخر به، وكان يدخل على الخليفة، فدخل يومًا مدرسة دار الذهب، فجعل يتمسخر، فقال له الكرْجيُّ: اتّقِ الله، نحن نبحث في العِلْم وأنت تَهْزِل! ما هذا موضعه. فدخل على الخليفة، وبكى بين يديه، وقال: ضربني الكرجيُّ وعَيَّرني؛ فغضِبَ الخليفة وأمر بصَلْبه، فأُخرج وعليه ثوب أزرق من ثياب الصوفية إلى الرحبة، ونصبوا له خشبة ليصلبوه، فقال: دعوني أُصلِّي ركعتين، فصلَّى فصلبوه، فجاء خادمٌ من عند الخليفة، فقال: لا تصلبوه. وقد مات، فلعن النَّاسُ النفيسَ الصّوفيَّ، وبقيَ أيامًا لا يَتجاسر أَنْ يَظهرَ ببغداد"[٢].

والمدرسةُ بقيَ فيها نشاطٌ علميٌّ حتى بعد اجتياح المغول بغداد وسقوطها سنة (٦٥٦هـ)، فآخر ما وقفتُ عليه صورةً من طَبقة سماعٍ للمَقامة الزينية مِن مُصنِّفِها سنة (٦٧٧هـ) وذكرَ فيها اسمَ أحد المدرِّسين بها، ونصُّه: "مجد الدين علي

---

١) انظر: مجمع الآداب في معجم الألقاب (٨٩/٢)، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب المسلمين (٥٣٧/٨).

٢) مرآة الزمان (٣٨١/٢١-٣٨٢).

بن محمد بن أحمد بن جعفر مدرس بمدرسة دار الذهب" وكانت القرءاة بالمدرسة المستنصرية[١]. ولم أجِدْ لها ذِكرٌ بعد ذلكَ، فقد دَرستْ وضاعتْ مَعالمُها.

- **الرباط:**

عَمَّرَ فخرُ الدولةِ ابنُ المطَّلب الكرمانيُّ دارَهُ رِباطًا وأوقفَ علَيها وعلى المدرَسة الوُقوفَ الجليلةَ[٢].

- **المسجد:**



وكان لفخر الدولة مسجد متصل بالرباط بالقرب من رحبة جامع القصر[٣]، وكتُب التاريخ والتارجم لم تذكر معلومات كافية عن المسجد ومتى بُني، إلا أنَّ ابن الدبيثي ذكرَ أنَّ محمد بن حيدرة بن عمر بن أبي المناقب الكوفي[٤] أنشده فيها بعض الأبيات سنة (٥٩٤هـ)[٥].

---

١) انظر: **المقامة الزينية**، تحقيق: عباس مصطفى الصالحي (ص٤٩-٥٦) وفيه تفصيل طبقة السماع.

٢) **مجمع الآداب في معجم الألقاب** (٣/٧).

٣) **ذيل تاريخ بغداد** (٣/١٤٤)، (١/٣١٨).

٤) انظر ترجمته في: **ذيل تاريخ بغداد** (٣/٣١٧-٣١٨).

٥) انظر: **المختصر المحتاج** (١/٢٢٣)، **المحمدون من الشعراء** (ص٢٢٥)، **الحياة الاجتماعية** (ص٢٥٩).

- **الجامع الغربي:**

ومن آثار فخر الدولة جامعه الكبير[١] بمحلة قصر عيسى[٢] على شاطئ دجلة الغربي بين أعلى محلة الجعيفر وشاطئ محلة الشيخ علي بن محمد بن بشار المعروفة بمحلة الشيخ بشار، وغرم عليه حدودًا من ثلاثين ألف دينار، وأوقف عليه وقوفًا كبيرة وجعل الولاية والوصية إلى جلال الدين بن البخاري[٣] نائب الوزارة[٤].

وكان بناء الجامع قبل سنة (٥٧٢هـ)، وأقيمت أوَّل صلاة جمعة في يوم الخميس ثامن جمادى الأولى من هذه السنة[٥]، وفي يوم الجمعة ثالث جمادى

---

١) قدر موضعه مصطفى جواد أنه كان أمام موضع مدرسة الكرخ الثانوية للبنات أو تحتها بقليل. انظر تعليقه على **المختصر المحتاج من تاريخ ابن الدبيثي** (٢٢٣/١).

٢) القصر منسوب إلى عيسى بن علي بن عبد الله ابن عباس، عم السفاح المنصور، وهو أول قصر بناه الهاشميون في أيام المنصور ببغداد وكان على شاطئ نهر الرّفيل عند مصبه في دجلة، وهو اليوم في وسط العمارة من الجانب الغربي وليس للقصر أثر الآن إنما هناك محلة كبيرة ذات سوق تسمى قصر عيسى (محلة الشيخ بشار حاليًا)، وعلى نهر دجلة بقايا بعض الأبنية القديمة، والمعروفة اليوم (بالسن) هي بقايا هذا القصر. انظر: **المنتظم** (٢٦٨/٨)، **معجم البلدان** (٣٦١/٤)، **أطلس بغداد** (ص٥)، **مجلة لغة العرب** (ع٥٦، ص٣٨٣)، هامش **المختصر المحتاج من تاريخ ابن الدبيثي** (٢٢٣/١). وقال في **المختصر المحتاج** (٢٢٣/١): "وكان الجامع يعرف قبل ذلك بمسجد ابن المأمون عند قصر ابن المأمون على دجلة فعمره فخر الدولة، ووسعه، وأنفق عليه مالًا".

٣) عبيد الله بن يونس بن أحمد الوزير جلال الدين أبو المظفّر الحنبلي، تولى نيابة الوزارة عام (٥٨٣هـ) توفي عام (ت٥٩٣هـ). وهذا يعني أنه كان يتولى الولاية على الجامع قبل أن ينوب في الوزارة. انظر: **تاريخ الإسلام** (٦٧٢/١٢)، **شذرات الذهب** (٥١٣/٦).

٤) **مضمار الحقائق وسر الخلائق** (ص١٣٠).

٥) **المنتظم** (٢٢٨/١٨)، **الكامل في التاريخ** (٤٢٧/٩). وذكر ابن الجوزي في **المنتظم** (٢٣١/١٨): "في يوم

الأولى من السنة نفسها مُنع من إقامة الجمعة فيه[1]، ولما تولى الخليفة الناصر سئل عن إقامة الجمعة فأذن وصلي فيه مرة أخرى في ذي الحجة سنة (٥٧٥هـ).



ومن تولَّى الخطابة في الجامع:

١- علي بن أبي الفخار هبة الله بن أبي منصور محمد بن هبة الله بن محمد، الشريف أبو التمام الهاشمي العباسي (٥٥١-٦٤١هـ)[2].

٢- عبد الحق بن عبد الله بن علي بن مسعود بن شمائل، الإمام، أبو محمد البغدادي، الصيدلاني (ت٦٩٣هـ)[3].

الجمعة خامس ذي القعدة: أذن في إقامة الجمعة بمسجد في شارع دار الدقيق من الجانب الغربي فأقيمت فيه وقد ذكرنا أنه أذن في إقامة الجمعة بمسجد ابن المأمون في جمادى الأولى فمن العجائب تجدد جامعين ببغداد في سنة واحدة". وانظر: **دليل خارطة بغداد** (ص٣٢٥).

١) **المنتظم** (٢٣٧/١٨).

٢) **تاريخ الإسلام** (٣٨٨/١٤).

٣) السابق (٧٩٦/١٥).

٣- معين الدّين أبو الخير تمّام بن أبي تغلب بن تمّام الواسطيّ (ت٦١٨هـ)[١].

وذكرَ ابنُ الدبيثي أنهُ صُلِّي على عبد المنعم بن عبد العزيز ابن النطروني المالكي في هذا الجامع عام (٦٠٣هـ)[٢].

وتهدم بعض الجامع في عام (٦٤٥هـ)، قال سبط ابن الجوزي[٣]: "قد رأيت هذا الجامع في سنة خمس وأربعين وستمئة، وقد استولت دجلة عليه، فأخربت بعضه، والظاهر أنه تخرَّبَ الباقي".

ويبدو أن الجامع رمم بعد ذلك فصُليت على جنازة فيه عام (٦٧٧هـ) وأنه كان له خطيب بعد (٦٧٩هـ) وأن الوزير سعد الدين محمد بن علي الساوي -والعجم يسمونه الساوجي- المقتول سنة (٧١١هـ) جدده وغرم عليه ألف ألف درهم، ولا توجد أخبار عن الجامع بعد ذلك[٤].

والجامع لم يبق له أثر، حاله حال كل ما بناه فخر الدولة.

١) **مجمع الآداب في معجم الألقاب** (٣٦٩/٦).

٢) **ذيل تاريخ بغداد** (٢٩١/٤-٢٩٢).

٣) **مرآة الزمان** (٢٨٨/٢١).

٤) انظر تعليق مصطفى جواد في هامش (٢٢٣/١) لتحقيقه **المختصر المحتاج من تاريخ ابن الدبيثي**، وقال محقق **مجمع الآداب** في هامش (٧/٣): "الظاهر أنه الجامع الذي نُسب إلى سعد الدين محمد بن علي الساوجي من أعيان الدولة الإيلخانية. في **الدرر الكامنة** (١٠١/٤) قال ابن حجر: كان من الكبار بالعراق، وأنشأ ببغداد جامعًا غرم عليه ألف ألف".

أثَرُ الأعْرافِ الإداريَّةِ في شُيوع الأخْطاءِ اللُّغويَّةِ "نَرجو، ويُرجى" نموذجًا

إعْدادُ:

صَفاء صَابِر البَيَّاتيّ

تُعدُّ الأعراف الإداريَّة سببًا من أسباب شيوع الأخطاء اللُّغويَّة وتداولها بين النَّاس، ومن نماذج هذه الأعراف ما يشيعُ لدى كثيرٍ من الإداريِّينَ والمؤسَّسات الإداريَّة أن الفعلَ "نرجُو" بصيغة المبني للمعلوم يُستعمَل للخطاب الصادر من الأعلى إلى الأدنى، ويدلُّ على العموميَّة والجمع والفوقيَّة. ويختصُّ الفعلُ " يُرجَى" بصيغة المبني للمجهول لما يكونُ من الأدنى إلى الأعلى. ولعلَّ السببَ في ذلك عندهم -كما يبدو- هو رغبةُ المتكلم في ألَّا يُظهِرَ ذاتَه (الفاعل المحذوف) في (يُرجَى) كأنَّ لها حظًا في ذلك الطلب، على العكس من "نرجو" الذي يُعرَفُ فاعلُه فتتَّضحُ فيه الذات. أي: كأنَّهم أرادوا بذلك تعظيم المُرجوّ منه؛ بعدم ذكر اسمه مقترنًا مع الفاعل (الراجي) فيما لو أُبقيَ عليه، فحُذِف الفاعل لذلك! وهذا مفهومٌ غيرُ صحيحٍ ولا يستندُ إلى أصلٍ لغويٍّ ولا إلى قياسٍ صَحيح؛ لأنَّ ما قيل في المرجو منه، يمكن أن يقال في الراجي، كأن يُقال: إنَّ الفاعل حُذِفَ؛ لرغبة المتكلم في إظهار تعظيمه لنفسه بصَون اسمه

عن أن يقترن في الذِّكر بالمفعول به (المرجوُّ منه)؛ لأنَّ حذف الفاعل يكون **للأسباب الآتية**:

١- إما للعلم به، فلا حاجةَ إلى ذكره، لأنه معروفٌ نحو {وخُلِقَ الإنسان ضعيفًا} [النساء: ٢٨]، والخالق هو الله، وهو معلومٌ عند الجميع.

٢- وإما للجهل به، فلا يمكنْك تعيينُه، نحو "سُرِقَ البيتُ" إذا لم تعرف السارق.

٣- وإما للرغبة في إخفائه للإبهام، نحو: نُقِلَ الموظَّفُ، إذا عرفت الناقل غير أنك لم تُرد إظهاره.

٤- وإما للخوف عليه نحو "ضُرب فلانٌ" إذا عرفتَ الضاربَ غير أنك خفتَ عليه، فلم تذكره.

٥- وإما للخوف منه، نحو " ظُلِمَ الموظَّفُ" إذا عرفتَ الظالم فلم تذكره، خوفًا منه.

٦- وإما لشرفه، أو لتحقيره، نحو "عُمل عَملٌ منكرٌ"، إذا عرفتَ العامل فلم تذكرهُ، حفظا لشرفه، أو لتحقيره؛ لأنَّه عملَ المنكرَ.

٧- وإما لأنه لا يتعلقُ بذكره فائدةٌ، نحو "وإذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو رُدُّوها"، فذكر الذي يُحيِّي لا فائدةَ منه، وإنما الغرضُ وجوبُ ردِّ التحية لكل من يُحيِّي.

فضلًا عن كون الواقع اللغوي يفنِّدُ هذا التأويل البعيد والمتكلَّف فيه، إذ ورد الفعل "يرجو" بهذه الصيغة في أكثر من ثلاثةٍ وعشرينَ آيةً قرآنيَّةً كريمةً في سياق الخطاب الصادر من الأدنى إلى الأعلى، نحو: قوله جلَّ وعزَّ: {أولئكَ يرجونَ رحمتَ اللهِ} [البقرة: ٢١٨]، وقوله: {وتَرجونَ مِن اللهِ ما لا يرجُونَ} [النساء: ١٠٤]، وقوله: {إنَّ الَّذينَ لا يرجُونَ لقاءَنا} [يونس: ٧]، وغيرها ممَّا ورد في هذا السياق.

أمَّا ما يُدَّعى أنَّ الفعل (نرجو) في هذه السياقات يدلُّ على العموميَّة والفوقيَّة والتعظيم فلا وجهَ له **على النَّحو الآتي**:

١- مسألة العموميَّة في (نرجو): إنَّ الفعل (نرجو) يكون لطلبٍ متوقَّعِ الحصول فحسب، ولا يدلُّ على غرضٍ آخر من الأغراض التي يدلُّ عليها الفعل المبني للمجهول (يُرجَى)، فيكون بذلك أعم من (يُرجَى)؛ لأنَّه يدل على الطلب الصادر من الأدنى إلى الأعلى فقط، في حين يدلُّ (يُرجى) على هذا الطلب أولًا، مُضافًا إليه غرضٌ من أغراض حذف الفاعل السَّابقِ ذكرُها.

٢- مسألة الجمع في (نرجو): هذه ليست مسألةً مطّردةً ثابتةً ولا قضيةً مطلقةً؛ لأنَّ صيغَ الجمع بالضمائر نحو (نحن) و(نا) أو بالفعل المبدوء بنون المتكلم نحو (نرجو) و(نقرر) وغيرهما، يكون للجمع حقيقةً أي: مجموعة من المتكلمين حقيقةً، أو حملًا على سبيل الحقيقة

كقوله تعالى: {إياك نعبدُ وإياك نستعين} [الفاتحة: ٥]، أو للمفرد الذي يريد تعظيم نفسه[١]. والذي يحدِّد أحد المدلولين هو السياق. فلا يمكن يمكن أن يُحمَلُ كلُّ فعلٍ يردُ بصيغة (نفعل) بنون الجمع على التعظيم!

٣- مسألة الفوقيَّة في (نرجو): وهي التي يُعبَّر عنها بالتعظيم في كتب النحو، لا يمكن أن يُحمَلَ الفعل (نرجو) في هذا السياق على دلالة الفوقيَّة والتعظيم، لما يأتي:

١) لأَنَّ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ لَا يَكُونُ جَمْعًا، ولِأَنَّ عِنْدَ الرجاء والطلب، فَاللَّائِقُ بِالموظَّف أَنْ يَذْكُرَ نَفْسَهُ بِالْعَجْزِ وَالذِّلَّةِ لَا بِالْعَظَمَةِ وَالرِّفْعَةِ.

٢) قولنا: (نرجو) في الطلب مَعْنَاهُ أَنِّي وَاحِدٌ مِمَّنْ يرجونك، وفيه إشارة إلى التواضع، في حين أنَّ (أرجو) قد يُفسَّر على التكبُّر وكأنَّه لا يُريدُ أن يُظهرُ فيه نفسَه وكِيانَه، فأخفى ذكرهُ ببناء الفعل للمجهول. بمعنى أنني أنا الراجي.

٣) أَنَّ التعبير بـ(نرجو) يُرادُ منه أنَّ الموظَّف -وَإِنْ كَانَ هو المحرِّرُ وَحْدَهُ- أنَّه هو وجميعُ مَن معه مِن مسؤول الوحدة والشعبة ومدير القسم في الجهة المصدِّرة يُشاركون في هذا الرجاء والطلب، وهذا أدعى للإجابة وأظهَرُ لمقام الجهة المرجوِّ منها. فضلًا عن أنَّهم يشاركونَ المحرِّرَ في تحمُّل المسؤولية الإدارية والقانونيَّة للكتاب.

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: (٩٧/١).

٤) كَأَنَّ الموظَّف يقول: السيد المدير مَا بَلَغَ رجـائي إِلَى حَيْـثُ أَسْتَحِقُّ أَنْ أَذْكُرَهَ وَحْـدَهَ، لِأَنَّـه مَمْـزُوجٌ بِجِهَـاتِ التَّقْصِـيرِ، وَلَكِـنِّي أَخْلِطُهَ برجاء جَمِيعِ المـوظفين الذيـن يُشـاركونني في مسـؤولية هـذا الكتاب، وَأَذْكُرُ كُلَّهم بِعِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ وأقول: (نرجو).

يتبيَّنُ ممَّا سبقَ أنَّـه لـيس ثَمَّـةَ اعتـدادٌ بصـيغة الفعـل في بيـان مَرتبـة المُخَاطِب أو المُخَاطَب؛ لأنَّ الرجاء في اللغة هو الطلب الصادر مـن الأدنى إلى الأعلى، كيفما كانت صيغته، نرجو أو يُرجَى، فلا ضَـيرَ في اسـتعمال "نرجـو" أو "يُرجَى" مهما كانت الرُّتـبُ والدَّرجـات، فكلاهمـا صـحيحٌ، ولكـنَّ اسـتعمالَ (نرجـو) أولى مـن (يُـرجَى)؛ لأنَّ الأولَ (أي: نرجـو) يكـون لطلـبٍ متوقَّـعِ الحصول فحسب، ولا يدلُّ على غرضٍ آخر ممَّا سبق بيانُه، فـلا يحتمـلُ ذمًّـا في ذاته إطلاقًا، في حين يُستعمل الثاني (أي: يُرجى) لهذا الطلب أيضًا، مُضافًا إليه غرضٌ من أغراض حذف الفاعل المذكور آنفًا، فيحتمل بـذلك ذمًّـا أو مـدحًا بحسب القصدَ الذي يبني عليه المتكلمُ كلامَه.

الفَرقُ بينَ
الخِطَّة بالكسْر والخُطَّة بالضمّ

إعداد:

د. عَبد البَاري بْن حمَّاد الأنصاريّ

ممَّا يَكثرُ اسْتعمالُه لدَى الأساتذة وطلبةِ العلْم في الجامعات كلمةُ "خِطَّة"، فينطقُها بعضهم (بضم الخاء)، وبعضهم (بكسرها).

ويَعنون بها: الورقةَ العلمية الَّتي يتقدَّمُ بها الباحثُ، وتتضمَّن وصفَ مشروع بحثه، الَّذي يرغبُ في العمل فيه لنَيل درجة الماجستير أو الدكتوراه أو ما دونهما.

والخِطَّة بالكسرِ والضمِّ وإن كان أصلُهما في اللُّغة واحدًا، فليستا مُترادفتَين، فلكلِّ واحدةٍ منهما معنًى يُخالف الأخرى.

قال ابن فارس: الخاءُ والطاءُ أصلٌ واحد؛ وهو أَثَرٌ يمتدُّ امتدادًا، فمن ذلك الخَطُّ الذي يخطُّه الكاتب[1].

١) مقاييس اللغة (٢/ ١٥٤).

وهَذا بيانٌ لمعنى كلِّ واحدةٍ مِن هاتَين الكلمتَين:

*** فأما (خِطَّة) -بالكسر-:**

فجاء أصلُ معناها في أحاديث منها: حديث زينب -رضي الله عنها- (أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- ورَّث النساءَ خِطَطهن)[١].

قال ابن الأثير: (ورَّث النساءَ خِطَطَهنَّ دونَ الرجال) الخِطَطُ جمعُ خِطَّة بالكَسر، وهي الأرْض يَخْتَطُّها الإنسانُ لنفسهِ، بأنْ يُعَلِّم علَيها علامةً، وَيَخُطَّ علَيها خَطًّا لِيُعْلَمَ أنه قد احْتازَها، وبِها سُمِّيتْ خِطَطُ الكُوفة والبَصرة. ومعنَى الحديثُ أنَّ النبيَّ -صلى اللهّ عليه وسلم- أعْطى نِساءً -منهنّ أمُّ عبْدٍ- خِطَطًا يَسْكُنَّها بالمدِينة، شِبْه القَطَائع، لا حظَّ للرِّجال فِيها[٢].

وقال السندي: "خِطَطهنَّ" ضُبِط بكسرٍ فَفتحٍ، أيْ: بيوتَهنَّ، أي: لَيس لورثةِ الزوجِ إذا ماتَ أن يأخذوا من المرأة البيت ويُخرجوها منه، بل علَيهم أن يُخَلُّوها في بيتها، وكانَ هذا الحُكْم خاصًّا بالمهاجرين، وانقضَى بانقضائهم[٣].

ونبَّهَ على أصلِ هَذا المعنَى اللُّغويُّون؛ فقال الجوهري: الخِطَّةُ بالكسر: الأرضُ يختطُّها الرجلُ لنفسه، وهو أن يُعلِّم عليها علامة بالخط ليُعلَم أنه قد

---

١) مسند الإمام أحمد (الحديث ٢٧٠٤٩).

٢) النهاية في غريب الحديث (٢/٤٨)

٣) حاشية المسند (١٤/ ٥١٠).

اختارها ليبنيها دارًا. ومنه خِطَط الكوفة والبصرة[١].

وقال الأزهري: الخِطَّة الأرض والدَّار يختطّها الرجل في أرضٍ غيرِ مملوكةٍ؛ ليتحجَّرها ويبني فيها، وجمعُها: الخِطَط، وذلك إذا أَذِن السلطانُ لجماعةٍ من المسلمين أن يختطُّوا في موضعٍ بعينه ويتَّخذوا فيها مساكن لهم، كما فَعلوا بالكُوفة والبصرة وبغداد، وإنما كُسرت الخاء من الخِطَّة لأنها أُخْرِجت على مَصدرٍ بُني على فِعْلَة[٢].

وقال الفَيُّوميّ: الخِطَّةُ المكان المختطّ لعِمارة، والجمع (خِطَطٌ) مثل سِدْرة وسِدَر، وإنما كُسرت الخاء لأنها أُخرجت على مصدر افتعل، مثلُ: اختطب خِطْبة وارتدَّ ردَّة وافترى فِرْية، وحذفُ الهاء لغة فيها، فيقال: هو (خِطُّ) فلان وهي (خِطَّتُه)[٣].

وعلى هذا المعنى ما يرِدُ في كتبِ التاريخ وغيرها "أنَّ فلانًا اختطَّ خِطةً بالمدينة أو البصرة أو الكوفة، كله -بالكسر- على المعنَى المتقدِّم.

وصنَّف في ذلك العلماء والمؤرخونَ كُتُبًا سمَّوها بهذا الاسم، منها: كتاب القُضاعي المسمى بـ(خِطَط مصر)، وكتاب المَقْريزي (المواعظ والاعتبار في ذكر الخِطَط والآثار) المشهور بخِطَط المَقْريزي، و(الخِطط التوفيقية) لعلي باشا

---

١) الصحاح (٣/ ٢٦٠).

٢) تهذيب اللغة (٦/ ٥٥٩).

٣) المصباح المنير (١/ ١٧٣).

مبارك، و(خِطَط الشام) لمحمد كُرْد علي.

* **وأما الخُطَّة -بالضم-:**

فقد جاءت كثيرًا في الأحاديثِ النبويةِ الشريفةِ وأشعارِ العرب وأمثالِهم:

ومن ذلك ما أخرجه البخاريُّ في قصة الحديبية: من قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطَّة يُعظِّمون فيها حُرُماتِ الله إلا أعطيتُهم إياها»(١).

وقول عروة بن مسعود -في الحديث نفسِهِ-: «فإنَّ هذا قد عَرَضَ لكم خُطَّةَ رُشد، اقبلوها ودعوني آتيه».

قال القاضي عياض: (لا يسألوني خُطَّة) بضم، أي: قِصَّةً وأمرًا(٢).

وقال ابن حجر: خُطَّة - بضمِّ الخاء المعجمة وتشديدِ المهملة -: أي خصلة خير وصلاح وإنصاف(٣).

وقال العيني: الخُطَّة بضمِّ الخاء المعجمة وتشديدِ الطاء: أي حالة، وقال الداودي: خصلة(٤).

---

١) الجامع الصحيح (٢٧٣١).

٢) المشارق (١/ ٤٧١).

٣) انظر: فتح الباري (٥/ ٣٣٩).

٤) عمدة القاري (١٤/ ٧).

ومن مجيء (الخُطَّة) بالضم في أشعار العرب: قول الحارث بن حِلِّزة في "معلَّقته":

أيما خُطَّةٍ أردتُم فأدُّوها　　　إلينا تُشفَى بها الأَملاءُ

قال الزوزني عند شرح البيت: الخُطة: الأمر العظيم الذي يَحتاج إلى مخلص منه[١].

وقال الجوهري: الخُطَّة بالضمِّ: الأمر والقصة[٢].

وقال زهير بن أبي سُلمى:

أَروني خُطَّةً لا عيبَ فيها　　　يُسوِّي بيننا فيها السَّواءُ

والسَّواء: العدل[٣].

وقال ابن فارس: الخُطَّة هي الحال؛ ويقال هو: بخُطَّةٍ سوْء. وذلك أنه أمرٌ قد خُطَّ له وعليه[٤].

وقولهم في المثل العربي: (في رأس فلان خُطَّة) قال العسكري: أَي فِي نَفسه حاجَة يَرومُها، ولَه أمرٌ يَطْلُبهُ، والجمع خُطَط، والخُطَّة الْخصْلَة، وَيُقَال هَذهِ

١) شرح المعلقات السبع (ص ١٥٨).

٢) الصحاح (٣/ ٢٦٠).

٣) تهذيب اللغة (١٣/ ١٢٦).

٤) مقاييس اللغة (٢/ ١٥٤).

خُطَّة خَسْف، وخُطَّة صِدْق.. تعني: الخَصْلَة[١].

ومنه قولهم في كتب التراجم: وَلِيَ خُطَّة القَضاءِ في بَلدِ كَذا، يعنون منصب القضاء، أي تولى أمر القضاء في تلك الناحية[٢].

*** فيتلخص ممَّا سبق:**

أنَّ الخِطة -بالكسر- الأصل فيها: الأرض الَّتي يَختطُّها الرجلُ، بأن يُعلِّم عليها علامة بالخط تُميزها.

وأمَّا خطَّة -بالضم- فتُطلق: بمعنى الأمر، أو القِصّة، أو الحال، أو الخصلة من الخصال، أو الحاجة.

فالخِطَّةُ يُراد بها أمرٌ محدَّدٌ مفصَّلٌ بدِقَّة حتَّى يتميَّز عَن غيرِهِ.

والخُطَّةُ حالةٌ أو خَصلةٌ مُجْمَلَة.

وإذا عُلِم ممَّا تقدَّم أنَّ لكلِّ واحدةٍ من الكلمتَين (خِطَّة) بالكسِر و(خُطَّة) بالضمِّ معنًى يتميَّزُ عن معنَى الكلمة الأخرَى، فالسؤال الذي يَرِد هنا:

ماذا نُسمي الورقة العلمية، المتضمّنة لوصف المشروع البحثي، التي يتقدم بها الباحث للموافقة عليها في مجال الدراسات العليا ونحوها؟

١) جمهرة الأمثال (٢/ ٩٨).

٢) ينظر: تكملة المعاجم العربية (٤/ ١٢٧).

ـ هل الصحيح فيها أن تُسمى: (خِطَّة) بالكسر؟ أو(خُطَّة) بالضم؟

فالذي يترجَّح من خلال ما سبقَ بيانُه من معنَى الكلمتَين وإطلاقاتهما، أنَّ الصوابَ تسميتُها بـ(خِطَّة) بالكسر.

وذلك أنَّ وصفَ المشروعِ العِلمي يتضمَّنُ: أهميتَه، وأسباب اختياره، وتقسيم أبوابه وفصوله ومباحثه، وربما أُلحقَ به المنهج الذي سيتَّبعه في العمل فيه.

وهذه الأمور بمثابة وضع المعالم والحدود التي تُجعل في الأرض التي يختطّها الشخصُ لنفسه، أو لغيرِه.

فعليه؛ فالخِطَّة هنا -بكسر الخاء- استعارةٌ من قولهم: اختطَّ الرجلُ أرضًا، إذا جعل لها خُطوطًا ومعالمَ تتميز بها عن غيرها.

والقياسُ اللُّغوي فيها الكسرُ، كما قال الفيومي: إنما كُسرت الخاء لأنها أُخرجت على مصدر افتعل مثل اخْتطبَ خِطْبةً وارتدَّ رِدَّة وافْترَى فِرْية[1].

وكذلك الأمر في الخِطَط الاقتصادية، فإنَّ واضعَها يرسمُ معالمَ ويضعُ إجراءات؛ يُؤمَّل من السير على وَفقها تحقيقُ أهدافِ تلك الخِطَّة.

ويَزيد ذلك وضوحًا أن حُذَّاقَ المشتغلين بآداب التأليف والبحث العلمي: يُشبِّهون تصنيفَ الكُتُب وتأليفَها بالشروع في البُنيان، فكما أنَّ من يبني دارًا يحتاج إلى إجراء تخطيطٍ لها، يُبين هذه الدار وحُجَرِها ومرافِقِها، فكذلك

١) المصباح المنير (١/ ١٧٣).

المؤلِّف لا بدَّ أن يكون متصورًا للخطوط العريضة لكتابه، قبل أن يشرع فيه، ليسيرَ فيه على منهجٍ أمثل، ويُخرج كتابَه بصورة أجود.

فخِطَّة البحث -الَّتي تُبيِّن أبوابَه وفصولَه ومباحثَه- شبيهةٌ بمُخَطَّط الدارِ الَّذي، يُحدِّد مكوِّناتها، ويُصوِّر كيفيتَها ومقاييسها.

ويظهرُ ممّا سبق أن (الخِطَّة) بالكسر أوضحُ ارتباطًا وصلةً بالخِطة العلمية للبحث من (الخُطَّة) بالضمِّ الَّتي يُقصَد منها: الخَصلة من الخِصال، والحال من الأحْوال، والأمْر من الأمور، ونحو ذلك. والله تعالى أعلم.

استعمال جذر (ق.و.م) بدلالة السَّكَن

إعْدادُ:

حَسَن طَلال الرَّمضانيّ

تعريف السَّكَن:

في اللغة: "السِّينُ والكَافُ وَالنُّونُ أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، يَدلُّ عَلى خِلافِ الاضْطِرابِ والحَركةِ. يُقالُ: سَكَنَ الشّيءُ يَسكُنُ سُكُونًا فَهوَ ساكِنٌ. والسَّكْنُ: الأَهْلُ الذِينَ يَسكُنُونَ الدَّارَ"(١)، والسَّكَنُ: المَنْزِلُ، وَهوَ المَسْكَنُ والمَسْكِنُ أيْضًا، وَهوَ المَوضِعُ الَّذي يُسْكنُ فِيهِ، والجَمْعُ مَساكِن(٢). وَذَكَرَ ابن مَنظُور (ت٧١١هـ): سَكَنَ بِالمَكَانِ يَسْكُنُ سُكْنَى وسُكُونًا: أَقَامَ. والسَّكِينَةُ: الوَدَاعَةُ والوَقارُ(٣).

---

(١) **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، (١٩٧٩م)، (٨٨/٣).

(٢) ينظر: **العين**، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال ٣١٢/٥. **جمهرة اللغة**، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت٣٢١هـ)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين- بيروت، ط١ (١٩٨٧م) ٨٥٦/٢ .

(٣) ينظر: **لسان العرب**، محمد بن مكرم ابن منظور (ت٧١١هـ)، دار صادر- بيروت، ط٣ (١٤١٤هـ-١٩٩٣م) ٢١٢/١٣-٢١٣.

والسَّكَن في الاصطلاح: "كُلّ مَا يُسْكنُ إِلَيْهِ وَفِيهِ ويُستأنَس بِه"(١). وهو "المكْثُ فِي مَكَان عَلَى سَبِيلِ الاستِقرارِ وَالدَّوَام"(٢).

جذر (ق.و.م):

وردَ جذرُ (ق.و.م) في القرآنِ الكريمِ بدلالةِ السَّكن في الحياة الدنيا في خمسةِ مواضع متفرِّقةٍ، وذلك في:

١. قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ **إِقَامَتِكُمۡ** وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ [النحل:٨٠].

٢. وقوله: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ **وَٱلۡقَآئِمِينَ** وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦].

٣. وقوله: ﴿وَكُنُوزٖ **وَمَقَامٖ** كَرِيمٖ﴾ [الشعراء:٥٨].

٤. وقوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

---

(١) **الكليات**، أيوب بن موسى الكفوي (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة- بيروت ٤٩٥/١.

(٢) **معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية**، د. محمود عبد الرحمن عبد المنعم، دار الفضيلة ٢٨٠/٢ .

أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ **مَّقَامًا** وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:٧٣].

٥. وقوله: ﴿وَزُرُوعٍ **وَمَقَامٍ** كَرِيمٍ﴾ [الدخان:٢٦].

فالملاحظ أنه وردَ بصيغٍ عدَّةٍ، فجاء بصيغةِ اسمِ الفاعل، وبصيغة المصدر، وصيغة اسم المكان، وممَّا جاء بصيغةِ اسمِ المكان ما وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَزُرُوعٍ **وَمَقَامٍ** كَرِيمٍ﴾[الدخان:٢٦]، ووروده بصيغة اسمِ المكان؛ للدلالةِ على مكانِ وقوعِ الحَدَث[١].

الدلالة:

اختلفَ المفسرونَ في تحديدِ دلالةِ لفظِ (مَقَام) في الآية، فمنهم مَن قالَ إنَّها المساكن[٢]، فذكرَ ابنُ عاشور: "والمقام بفتح الميم: مكان القيام، والقيام هنا مجاز في معنى التمكُّن من المكان. والكريم من كلِّ نوعٍ أنفسه وخيره،

(١) ينظر: **المعجم المفصل في علم الصرف**، راجي الأسمر، مراجعة: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١ (١٤١٣هـ- ١٩٩٣م) ١٣٦-١٣٧ .

(٢) ينظر: **بحر العلوم** ٢٧٠/٣، نصر بن محمد السمرقندي (ت٣٧٣هـ) ، **تفسير مقاتل بن سليمان** (ت١٥٠هـ)، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث- بيروت، ط١ (١٤٢٣هـ). ٢٠٥/٣ ، **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، علي بن أحمد الواحدي (ت٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١(١٤١٥هـ- ١٩٩٤م) ٨٩/٤ ، **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس** (ت٦٨هـ)، جمع: محمد بن يعقوب الفيروزابادى (ت٨١٧هـ)، دار الكتب العلمية- لبنان ٤١٨/١ .

والمراد به: المساكن والديار والأسواق ونحوها"[١]، ومنهم مَن قالَ إنَّها المجالس الحَسَنة الَّتي كانت لهم[٢]، ومنهم من قال إنَّها المَنَابِر[٣].

وذَكرَ مقاتل بن سليمان، وهارون بن موسى (ت: أواخر القرن الثاني الهجري) وهما مِن أصحابِ كتُبِ الوجوهِ والنَّظائرِ: أَنَّ دلالة لفظِ (مَقَام) في هذه الآية هي المسكن[٤]. وأستبعدُ أنْ تكونَ دلالة (مَقَام) هي المنابر التي

---

(١) ينظر: **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر- تونس، (١٩٨٤هـ) ٣٠٢/٢٥.

(٢) ينظر: **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، أحمد بن محمد الثعلبي (ت٤٢٧هـ)، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١ (١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م) ٣٥٢/٨ ، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، الحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١ (١٤٢٠هـ) ١٧٧/٤ ، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، علي بن محمد الخازن (ت٧٤١هـ)، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١ (١٤١٥ هـ) ١١٨/٤ ، **تفسير الجلالين**، محمد بن أحمد جلال الدين المحلي (ت٨٦٤هـ) وعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الحديث- القاهرة، ط١ ٦٥٨/١ ، **التفسير الوسيط**، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر- دمشق، ط١ (١٤٢٢هـ) ٢٣٨٣/٣ .

(٣) ينظر: **النكت والعيون**، علي بن محمد الماوردي (ت٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية- بيروت ٢٥١/٥ ، **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، عبد الرحمن بن محمد الثعالبي (ت٨٧٥هـ)، تحقيق: محمد علي معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١ (١٤١٨هـ) ١٩٩/٥ .

(٤) ينظر: **الوجوه والنظائر في القرآن العظيم**، مقاتل بن سليمان البلخي (ت١٥٠هـ)، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث- دبي، ط١ (١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م) ١٤١ ، **الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، أبو هلال العسكري (ت٤٠٠هـ)، تحقيق: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة، ط١ (١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م) ٣٥٢ .

قال البعضُ عنها أنّ فرعون كان قد أمَرَ بإنشائها بمصر؛ ليُمدحَ عليها، ويُثنى عليه(١)؛ فهي لا تُعُّ بالشيءِ المُهمِّ مقارنةً بالجنَّاتِ، والعيونِ، والزروعِ. وأُرجِّحُ أنْ تكونَ الدلالة هي المَساكِن؛ كونها هي التي مِن الممكنِ أنْ تُورث، فضلًا عن أهميتها إذا ما قورنت بالبساتينِ الغنَّاء، وعيون الماء التي ورثوها، أمَّا المجالس الحسنة فمن شأنها أَنْ تُقام داخلَ قصورِ الأُمَراءِ الفارهةِ، وفي منازلِ الأغنياءِ العامرةِ، فهي في المحصِّلةِ تُعدُّ جُزءًا مِن تلك المَساكن.

يقول ربُّ العزَّةِ مخبرًا عن حالِ قوم فرعون بعد غَرَقِهم: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ * وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ * وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾[الدخان:٢٥-٢٧] فـ(كَمْ) في الآية خبريّة تُفيد التكثيرَ والتهويلَ، وهي في محلِّ نصب مفعول به مُقدَّم، أي ما أكثرَ ما تركَ فرعون وقومه القُبطُ من بساتين وأشجار، ومنابع ما كان يجري في بساتينهم من أنهار، وزروعٍ قائمة في مزارعهم، ومساكن حِسانٍ بعد إهلاك الله إيَّاهم بالغرق، وقد أُتِي بـ(مِن)؛ لورودِ فعلٍ متعدٍّ فصَلَ بين (كَمْ) الخبرية وبين مميّزها؛ لتجنُّب التباسِ المميّز بمفعولِ ذلك المتعدِّي(٢)، و"النَّعمةُ بفَتحِ النُّونِ: اسمٌ للتَّنعّم مصوغ على وزن المرَّة. وليس

---

(١) ينظر: **تفسير الثعالبي** ١٩٩/٥ ، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، شهاب الدين محمود الألوسي (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عطية، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١ (١٤١٥هـ) ١٢١/١٣ .

(٢) ينظر: **جامع البيان في تأويل القرآن**، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، محمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١ (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م) ٣١/٢٢ ، **شرح شافية ابن الحاجب**، محمد بن الحسن الإستراباذي (ت٦٨٦هـ)، تحقيق: محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد محيي الدين

وليس المراد به المرَّة بل مطلق المصدر باعتبار أن مجموع أحوال النعيم صار كالشيء الواحد وهو أبلغ وأجمع في تصوير معنى المصدر، وهذا هو المناسب لفعل تركوا؛ لأَنَّ المتروك هو أشخاص الأمور التي ينعم بها، وليس المتروك، وهو المعنى المصدري"[1]. وفاكهينَ أي ناعمين، وقُرِئ: فَكِهين أي أشِرين بَطِرين[2].

عبد الحميد، دار الكتب العلمية- بيروت، (١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م) ١٥٦/٣ ، **إعراب القرآن الكريم**، أحمد عبيد الدعاس- أحمد محمد حميدان - إسماعيل محمود القاسم، دار المنير ودار الفارابي- دمشق، ط١ (١٤٢٥هـ) ٢١٠/٣.

(١) ينظر: **التحرير والتنوير**، ٣٠٢/٢٥.

(٢) ينظر: **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، ١٧٧/٤ ، **معجم القراءات**، د. عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين- دمشق، ط١ (١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م) ٤٣١/٨.


نروي لنرتوي

المقالات



كائناتٌ لا نَعرف ماذا تعمَل؟!

بقلم:
د. وَليد الصرَّاف

في وسطنا الأدبي والإعلامي ثمة أناس لا تعرف ماذا يشتغلون! هم ما بين أنصاف بل أرباع بل أعشار مَوهوبين ومَوهومين، وتجار وانتهازيين، وعبيد يحتاجون إلى النخّاس ليجدوا سادتهم، وعبيد لا يحتاجون إلى النخّاس، وسماسرة نساء، ونساء مبتدئات، ومخبرين سريين، ومخبرين علنيين، ومحررين لا يعرفون القراءة والكتابة، ونقّاد لهم من الصفاقة ما يجعلهم يكتبون عن نص يخطئون في النحو والوزن عند قراءته، وأكاديميين تعد أُطروحاتهم في مكاتب استنساخ مقابل مال، ومتشاعرين يخصفون على عجزهم عن الوزن من ورقة توت النثر، وجواسيس ينقلون الأخبار إلى أصحاب المال والقوة، وينقلون أخبار أصحاب المال والقوة إذا وجدوا الأغنى والأقوى، ونافخي بالُونات، وبالُونات تعلو فتبدو أعلى من النجم نفسه، وناس تقول ما لا يُفهم، وناس لا تفهم ما يُقال، وفقاعات لا تنفثئ في عشرين عامًا، وطواويس تتحذلق، وقرود تتملّق، ولبلاب يتسلّق، وموسر يتصدّق، وحجارة تقف في الطريق، ورافعي شعار "اكتب عنّي لأكتب عنك"، و"ادعني لأدعوك"...

وفي الوسط الأدبي والإعلامي عالَم كاملٌ من الكائنات الحيّة التي إن وصفتها بالكلاب قاطعك الوفاء محتجًّا، أو قلتَ إنها حشرات أحجمت فللحشرات فوائد، كائنات أدنى قطعًا من الحشرات، تتعثّر بها وأنت تدخل جريدة، أو مجلّة، أو دار نشر، أو قاعة شعر، أو حرمًا جامعيًا، أو قاعة محاضرات، ويتعثر بها نصُّك عندما ترسله في بريد أو فضاء..

كائنات لها مكاتب في الأرض ومكاتب في الفضاء: تطنُّ، وترن، وتهمس، وتصرخ، وتلحن في اللغة، وتخطئ في الوزن، وترطن بالمصطلح..

كائنات أصبحت بتراكم الزمن طبقات من الأوساخ، و بيئة مترامية الأطراف، لها شبكات من الأدغال التي تتكاتف مع بعضها أو تتقاطع أحيانًا؛ فتسمع عواءً مقابل عواءٍ، وصفيرَ جنادب مقابل صفيرٍ، ونعيقًا ونقيقًا مقابل نعيقٍ ونقيقٍ، ونَهيقًا ومكاءً وتصديةً و...

وما أن يرتقي شاعر موهوب منبرًا -أو شاعرة موهوبة-، أو ينشر قاصٌّ أو روائيٌّ أو مسرحيٌّ أو مقاليٌّ موهوبٌ نصًّا، ويُعلن ناقدٌ رصينٌ عن موهبة، حتى تتلاشى جميعًا كما يتلاشى السَّراب عند التماع الماء الحقيقي، وكما تتوارى الخفافيش في وكناتها السرية المظلمة بمجرد أن تطلع شمس.

الفئة المتمدِّنة !

بقلم:
علي حسين

عندما ضَعُفَ فِكرُ المتديّنين، و استضاقت عقولهم، و أصبح الدين عندهم دينًا سطحيًا، للتعبّد الضيق، ذلك التعبّد الذي يتكوّر بين جدران المساجد فقط؛ وكأنّ فكرة التعبُّد هامشية وانحسرت عندهم إقامة الصلاة في الإقامة التي يؤدّيها المؤذن بصوته، ليُعْلِن بدءَ الصلاة، مُكتفين بذلك المفهوم الجُزئي للإقامة، غير أن مفهوم الإقامة أطول من عمر الصلاة المؤداة؛ إذْ توجِب الصلاة امتداد إقامتها في النفوس لما بعد الصلاة الجسدية؛ لتمتدَّ الإقامة بعد ذلك إلى النفوس، فينعكس ذلك في التعاملات اليومية لدى المتدين، فتصبح الصلاة مُقامة في كل مقام.

وبدا مُعظمهم كالسُذَّج، لا خبرةَ لهم في الحياة، و بدتْ في تصرفاتهم سذاجة الغائبين عن الواقع، و جهالة تراكمية، وسوءُ استنباط وتأخُرُ بديهة، وعنادهم وتمسكهم بالقراءة الآمنة -على افتراض أنهم يقرؤون- وأغلبهم لا يقرؤون إلّا قليلًا. وتسرعهم في خوض النقاشات والدخول في الحوارات الجدلية، واقتناعهم بأنهم تشيَّخوا بِفُتات العلم الشرعي الذي تدارسوه. بالإضافة إلى ظهور الإرهاب

المتأسلِم، الذي يستندُ إلى نصوص إسلامية مُقتصة، ملويَّة العُنُق...

فكانت النتيجةُ:

أنْ ظهر مَن يَنتمي إلى تلك الفِئةِ المُتَمَدِّنةِ؛ قارئٌ، صَدمته الحياة كثيرًا حتى سلبته آخر قطرة حياء، فراح يكتب بحريةٍ مطلقة على المنصّات المتاحة إلكترونيًّا، ويتلفظ بألفاظ بذيئة، ويُحلِّلُ البشر والحجر، ويُظهر معرفةً مُطلقة بالأسئلة الغائية الوجودية، ويتذاكى كثيرًا بما لديه من المخزون المعرفي المُتشظّي غير المنتظم؛ حتى ظَنَّ أنهُ قد فَهِمَ الوجود، فصار يطعنُ بالمتدينين ويَصِفُ إسلامهم بالإسلام الطفولي، ويسخر من أساليبهم التكفيرية المباشرة وغير المباشرة، وسذاجة تفكيرهم، وضيق عقولهم.

وأعلَنَ بكل حريةٍ أنه ضد التدين، واستخدم الهزل في منشوراتهِ؛ الهزل الماجن، والمزاح غير المشروط، ولكن بعقلية قارئٍ يعلم الكثير، وفَطِنٍ يَفقه الواقع. فالتفّ حوله الكثيرُ من الشباب الذينَ صُدِموا بمطرقةِ الإرهاب النسوب إلى الإسلام، وبفساد الأحزاب الإسلامية؛ لخفة دمه المعجونة بالثقافة، وأسلوبه السلس والجريء في إثارة الجدَل، وادعاء الجرأة، فترى في صفحاتهِ الكثير من المعجبين، والمعلقين.

والغريب أنه يدافع كثيرًا عن حُريّة التدين التي ينتهكها هو من حيث لا يدري، أو ربما يدري...

من خلال تجربتي المتواضعة، وقراءتي البسيطة أعتقدُ بأنّنا نَحتاج إلى فكرٍ مُتفتّح، نفهم فيه التديُّن، التدين البنَّاء، الذي يُحرِّك الشغف والروح والدافع للعمل بضمير وإخلاص؛ فإنَّ الإسلام الذي عرفتهُ يبني فكر الإنسان وفضيلتهُ أولًا، ثم بعد ذلك يأمرهُ وينهاه.

الإرهاب المتأسلم والأحزاب الإسلامية الفاسدة، والشيوخ المنافقون، والدَّجالون المتكسِّبون من جهلِ الناس؛ انتهكوا الإسلام، واستغلوا سذاجة التوابع؛ التوابع الذين صنعتهم الجهالة.. فأظهروا للعامة: (أنَّ الإسلام مفسدة) وحاولوا بعلمٍ أو بجهلٍ أن يوصلوا إلى العامة أنَّ الإسلام شُمِلَ بالأديان التي تنضوي تحت فكرة "الدين أفيون الشعوب"...

القراءة والمطالعة العميقة والمخالطة الاجتماعية المستمرّة والرغبة المشتعلة: تصنع الفكر.. القراءة هي الضوء الذي يسقط على الأشياء لتظهر للعين حقيقة الأشياء، ومن المهم أن تكون القراءة منهجية ومنتظمة.

أحدثكم بهذا، لأني قد مررتُ بالتجربتين تباعًا، تجربة المتدين الساذج الذي تسرَّعَ في الاعتقاد، وتسرَّع في انتهاج السلوك وكبْتِ الأسئلة بحجة الخوف من الانحراف الفكري؛ ثم المتدينِ المصدومِ، الذي صدمته الحياة، وأطرقه طارقُ الدهشة والحيرة فأوشك أن يتيه؛ ثم المتمدن الذي أرهقته الحياة فالتجأ إلى التشكيك والانفلات؛ ثم ها أنا ذا، أبحث بصبرٍ وعقلانيةٍ، ولا أدَّعي الطُهر ولا أنكره، فالنَّفْسُ تتقلَّب، كما لا أدَّعي المعرفة، فإني لازلت طالبها. ولعلَّ

أبرز ما جعلني أُمسك زمام أمري، هو البحث عن كل سؤال؛ فطرحُ الأسئلة وحدَه لا يكفي.

في النهاية: مَن يُريد أن يدافع عن دينه؛ أيًّا كان دينه، فليَتَفقَّه جيدًا.



أودية الاستهلاك والهلاك.. والتغيير الذاتي!

بقلم:
يَاسِين محمَّد نزَّال

إنّ النّاظر في سنّةِ الله تعالى في معاقبة الأمم الغابرة يجدها لحظيةً، فقد قصّ علينَا القرآن قصص الظَلَمة والطُّغاة والفاسدين والبخلاء كيف أُبيدُوا أمام أعيُن الناس لتكون تلكمُ النهايات المأساوية عبرةً لِمن بعدهم؛ ففرعون استعبد الناس وقال لهم: {ما أُريكُم إلّا ما أرى وما أهديُكم إلّا سبيلَ الرَّشاد}[غافر:٢٩] -كما يفعله الكثيرُ في زماننا ممّن آتاه الله قوَّةً!- فأغرقه اللهُ وجنودَه، وقارون الذي آتاه الله خزائن الأرض الذي قال: {إنَّما أُوتيتُه على علمٍ عندي}[القصص:٧٢] -كما يقوله الكثيرُ!- فخسف الله به وبداره الأرض، وأصحاب الجنَّتينِ الذِّين منعوا الضعفاء حقَّهم، وتلك القرية التي كانت آمنة، وغير ذلك من قصص الهلكى قرًى وأقوامًا! فحتَّى حينما أراد أصحابُ الفيل هدمَ الكعبة تكفّل الله تعالى بحفظ بيته فأرسل عليهم طيرًا أبابيل فجعلهم كعصفٍ مأكول. وكذا أنبياء الله لمّا دَعَوا على أُممِهم فأهلكها الله تعالى بجنوده فلم تنفعهم تلك القوّة، ولا ذاك الجبروت!

ولكن مثل هذه العقوبات الآنية والعامة لم تعُد مستمرةً، ليس رضًا من الله كما يظن البعض(!) بل لحكمةٍ أرادها ربُّ العِزَّة؛ قال محمد رشيد رضَا: "وهذا النوع من الهلاك كان خاصًّا بأقوام الرسل أولي الدعوة الخاصة لأقوامهم، وقد انتهى ببعثة صاحب الدعوة العامة خاتم النبيين" [تفسير المنار: ٣٥٨/٨]. فنبيّ الرّحمة محمد -صلى الله عليه وسلم- لم يدعُ على أمّته بالهلاك، بل صبر على تربية أصحابه -فردًا فردًا-، كما صبر على ظُلم أعدائه له، لتستمرَّ هذه الأمانة يحملها جيلٌ بعد جيل كما قال تعالى: {كنتم خيرَ أُمّةٍ أُخرجت للناس تأمرون بالعروف وتنهون عن المنكر}[آل عمران: ١١٠]؛ فينشرون العلم، ويوجّهون الناس، ويأخذون بأصحاب المعاصي إلى التوبة، ويدافعون عن الحق وأهله، وعن الضعفاء والمستضعفين بالعلم والنفس والمال.

وإنّ مِن غرائب هذا الزمان أن تجدَ الكثيرَ من الناس مَن يقبع في الإسراف والمعاصي ومع ذلك ينتظرون من الله تعالى النصر، ويأملون بقهر الظالمين، كأن أحدَهم فردٌ من الأمم الغابرة يتمنّى على الله الأماني، فمثلُ هذا الانتظار -كوننا من أمة محمّد صلى الله عليه وسلم أُمّة الدّعوة- **ما هو إلّا مضيعة للوقت، وتسهيلٌ لعمل الظالم**، وهو مخالفٌ لسنن الله تعالى الذي أمر عباده -لكي يتحقَّق نصرٌ- بالتقوى وإقامة العدل والبرِّ والإحسان وتعظيم الشعائر وغير ذلك من الأعمال {إن تنصروا الله ينصُرْكم..}[محمد: ٧]؛ قال بعضُ أهل التفسير: "هذا أمرٌ منه تعالى للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام

بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبَّت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصَّبرِ والطمأنينة والثبات، ويصبرُ أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعدٌ من كريم صادقِ الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره".

فلذلك كان التغيير الجماعي (=النصر) لا يبدأ إلّا من التغيير الذاتي، قال تعالى: {إنَّ الله لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسهم}[الرعد: ١١].

ولعلَّ الكثير يتساءل: ماذا ينبغي للفرد أن يفعله -في الواقع- حتى يتغير ذاتيًا؟ وهذا التساؤل جاء من واقع أن الكثير يتعجَّب كيف أنّ معظم الأمة تُصلِّي وتصوم وتحجّ وتعتمر وتذكرُ الله وتطبع المصاحف وتنشر الكتب وتصلِّي على النبيّ -صلى الله عليه وسلم-، ولكننا نراها ضعيفةً مقهورة على جميع الأصعدة، تسيُر من ضَعفٍ إلى ضَعفٍ إلى ضَعف!

فلا خِلاف في أن الصلاة والصوم والحج والعمرة وغير ذلك.. هي من المطلوبات، ولكنْ دعني أسألُ هذا الذي اجتمعتْ فيه تلكم المطلوبات:

- هل أنت من متابعي كرة القدم؟
- وهل أنت من متابعي الفنانين والفنانات؟
- وهل أنت من متابعي الأغاني والأفلام؟
- وهل أنت من المسرفين على أغلى أصناف الأكل واللباس

والتكنولوجيا...؟

فهذه الأربعة يؤدِّي الإغراقُ فيها إلى تحويل العبادات إلى عادات، وقلب التفاهات إلى أولويات؛ فيغفل العبد ولا يستيقظ حتى يأتيه أجله، بينما عدوه الذي حفر هذه الأودية ينهش في ماله ودينه وأسرته ومجتمعه وأمّته!

لذا كانت هذه الأربعة -التي أسميها أودية الاستهلاك والهلاك- من العوائق التي تبعد العَبد عن رؤية الحقائق، وتحيد به عن الاهتمام بالأَولى ذاتيًّا وجماعيًّا.

قد يسأل البعض: كيف ذاك؟

فلنضرب أمثلة:

انظر مثلًا إلى متتبِّع كرة القدم، ستجده مشغولًا طوال أيام السّنة ليلَ نهارَ يتابع كأس العالم وما قبله وما بعده، والبطولات المَحلِّية والدولية والقارِّية، وأخبار اللّاعبين المحليين وغيرهم والمدرِّبين، دع عنك التَّعصُّب البارد الذي مآله اختلاف القلوب، وضياع الأنفس أحيانًا!

فهل هذا من العقل في شيء؟ أو من الدِّين في شيء؟ وهل وجود كل هذه العوائق على مدار اليوم والليلة يساعد على التغيير الذاتي بله الجماعي؟!

والشيء نفسه أقوله لمتابع أخبار الفنانين(!) والفنانات(!) عربهم وعجمهم: ...فلانٌ طلَّقَ وآخر تزوج وتلك انتحرت، وأخرى تخون(؟) فذاك

يخون(؟)، وفلان وُلد له من صديقته(!)...

ولمتتبع الأغاني والأفلام والمسلسلات: تتبع المسابقات ومستجدات الأفلام وأجزاء المسلسلات، يحدث هذا على مدار أيام السَّنة وفي أيام رمضان وأيام الحج كذلك!

فتجدُ البال مشغولًا ليلَ نهارَ في البحث والمشاهدة والتحليل (=القال والقيل)؛ فأنَّى لمثل هذا أن يتفرغ لِما هو أولى للتغيير الذي يبحث عنه؟!

وقِسْ على ذلك لو اجتمعتْ هذه الأودية الثلاثة في فردٍ واحدٍ!!

وأمّا وادي الإسراف فحدث عنه ولا حرج -كما يقال-؛ فذاك هو السباق الزائف، وتلك هي الغفلة الصريحة، فانظر إلى القمامات ومخلّفات المطاعم والمقاهي وغيرها ستجدُ بعض الجواب على أننا نعيش حالة إسراف فريدة!

وما قد يستغربه الفرد ظهور أشياء ليس غرضها سوى إفراغ الجيوب وتنويم العقول كمصطلح (VIP)! فحتّى العلاج -والذي هو من الحالات الإنسانية- دخلها مثل ذلك! وكذا ظهور هوس العلامات التجارية الاستهلاكية التي قيل فيها أنها كذبة صدقها الناس، فليست سوى وسيلة تحويل الأموال إلى أصحاب هذه العلامات! بل إنّ البعض يُسرف على نفسه في يوم واحد ما تحتاجه أنفُس خلال (٣٦٠) يومًا!

ولك أن تُقارن ماذا يحدث بعدُ للمتابِع والمتابَع:

فالمتابَع: يزداد ثراءً وأهميةً مجتمعية، بل بعضهم يزداد كِبرًا وتعاليًا، بل بعضهم يتنكر -وقت الأزمات- لبني جلدته ممّن ساهم في ثرائه! فتراه لا يبصر سوى نفسه، ومَن هُم مثله، أو أعلى منه (مصلحة)!

وأما المتابِع: فلا يكسب شيئًا سوى الفَقر، والقلق، وسوء الخلق، بل -في بعض الحالات- نقص في الدين والعقيدة!

والمقصود من هذه المقدّمة أن التغيير الذاتي أمرٌ لا يتأتي بالإغراق في الملذّات والمعوقات (أودية الهلاك الأربع).

إنّ هذا الذي يُريد أن يغير ما بنفسه -ليرقى فيرقى غيره- لو أنه ترك تتبع كرة القدم، واستغنى عن تعلّقه بالفنانين والفنانات ومنتجاتهم، واقتصد في الأكل والشرب واللباس وغير ذلك فماذا سيحدث؟

١. تفريغ البال من المعوقات التي تصدُّ النَّفْس عن الأولويات ولا سيما أنها تعلم أن وجودها في هذه الدنيا غير دائم وأنه ينبغي لها أن تسعى نحو حياة نعيم أبدية!

٢. تحسُّن الوضع الاقتصادي للفرد؛ فبدلًا من أن يضع ماله في اللهو والمتاع الزائف يستثمره فيما ينفعه ولا سيما وقت الأزمات التي غالبًا ما تكشف حقيقة معدن المتابَعين بأنه لا شأن لهم بما يحدث لمتابِعيهم ولا لمجتمعاتهم فالكل لسان حاله: نفسي نفسي! فما بالكم بيوم

القيامة: {إذ تبرَّأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذابَ وتقطَّعت بهمُ الأسباب}[البقرة: ١٦٦]!

٣. التضييق على المفسدين وفسادهم.

٤. تقليل انتشار الفقر.

٥. زيادة الروابط الإيمانية بين أفراد المسلمين في كل مكان.

٦.....

...وقائمة الفوائد طويلة جدًا ولكن كما يُقال: الحرُّ تكفيهِ الإشارة!

{والله غالبٌ على أمرِهِ ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمون}[يوسف: ٢١].

بقايا مخطوطات المدرستَين النظامية والمستنصرية ببغداد

بقلم:

عَبد العَزيز السَّاوريّ

تُعدُّ المدارسُ النظاميةُ علامةً مضيئةً في تاريخ الدولة العباسية، وقد بُنيتْ بأمر الوزير نظام الملك (ت: ٤٥٨هـ).

ومن أهم النظاميات: نظامية دار السلام بغداد، عاصمة العباسيين، وقد بدأ بناؤها سنة (٤٥٧هـ)، وتقع في الجانب الشرقي من بغداد في آخر سوق الثلاثاء (سوق باب الآغا) في المنطقة المسماة بـ(شارع النّهر) في يومنا هذا.

ولأنها دار عِلمٍ فقد ارتبطتْ بأسماء عددٍ كبيرٍ من أعلام ذلك الزمن ممّن كانوا يُدرِّسون فيها ويُؤلِّفون ويَنسَخون...

ثمَّ إنّها حوَت آلاف المجلداتِ في العلوم كلِّها؛ ومَن يقرأ في كتب التاريخ والتراجم يجد أخبارًا كثيرةً عمَّا كان فيها.

يقول ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ): "ولقد نظرتُ في ثَبَتِ الكتُبِ الموقوفة في

المدرسة النظامية؛ فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد...".

ويقول سبط ابن الجوزي (ت: ٦٥٤هـ): إنَّ الخليفة الناصر لدين الله نقلَ إليها عشرةَ آلاف مجلدة فيها الخطوط المنسوبة...

ومصطلح "الخط المنسوب" معروف في تراثِ الخطّ العربي.

وعن تاريخ المدرسةِ النظامية كتَبَ الراحلُ الأستاذ الدكتور أسعد طَلَس أُطروحته في فرنسا بعنوان: (المدرسة النظامية وتاريخها)، وأصلها بالفرنسية نشرتها له مؤسسة غوتنر بباريس، سنة (١٩٣٩م)، بعنوان:

(La madrasa Nizamiyya x Et Son Histoire)

وكتب الراحل الأستاذ الدكتور حسين أمين: المدرسة النظامية من مظاهر الحضارة الإسلامية ببغداد، سنة (١٩٦١م).

وكتب الراحل الأستاذ ناجي معروف: علماءُ النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، سنة (١٩٧٣م).

ومِن أبرز الَّذين درَّسوا في المدرسة النظامية: إمامُ الحَرَمين الجويني (ت: ٥٠٢هـ)، والخطيبُ التَّبريزي (ت: ٥٠٢هـ)، وحجة الإسلام الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، وأبو البركات الأنباري (ت: ٥٧٧هـ).

وقد سعى علماء المغربِ والمشرقِ لزيارتها؛ ومنهم: أبو بكر ابن العربي

المعافري المالكي (ت: ٥٤٣هـ) الذي قرأ فيها كتاب "المُحيط" للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥هـ).

خبرٌ جَديدٌ اليومَ أنَّ الباحثَ العراقيَّ الدكتور مصعب ماجد، أحصى في العالَمِ حتى الآن (٥٢) مخطوطة نَسخية كُتبتْ في المَدرسة النظامية ببغداد.

ولكنِّي أستدركُ عليه نسخةً وحيدةً كُتبتْ بخطٍّ مَغربيٍّ سنةَ (٥٥٠هـ).

والجميل والأفضل أنَّ الباحث العراقي نفسه -الدكتور مصعب ماجد- أنجزَ بحثًا آخَر عن بَقايا منسوخات المدرسة المستنصرية ببغداد...

والسيد مصعب ماجد باحثٌ وفيٌّ للمَدارسِ العِراقيَّة التُّراثيَّة.. مثلَ أخي وصديقي الكريم الوفيّ بمَدارس المَغرب القديمَة: السيد الأستاذ رشيد العفاقي.

وأمَّا المدرسة المستنصرية فهي من الآثار العباسية القليلة الباقية إلى يوم الناس هذا، إذ تقفُ شامخةً في الجانب الشرقيِّ من بغداد (الرصافة) على ضِفَّة نهر دجلة.

وهي إحدى البنايات السبعِ المتبقية من الدولة العباسية إلى يوم الناس هذا في بغداد.

كان قد أمرَ الخليفةُ العباسي المستنصر بالله (ت: ٦٤٠هـ) ببنائها سنة (٦٢٥هـ)، وافْتُتحتْ في جُمادى الآخرة سنة (٦٣١هـ).

ويَذكرُ ابن عنبة (ت: ٨٢٨هـ) أنَّ الخليفة وضعَ فيها ثمانين ألف مجلدًا، ولكنّه يَستدركُ أنْ لا شيءَ بقيَ منها!

لمْ تَكن المستنصرية خزانةَ كتبٍ، بل مجمعًا للعِلم والكتابة والتأليف، وفيها دورٌ لكلِّ اختصاص.

مِن أشهر أعلامها: مظفَّر الدين ابن الساعاتي (ت: ٦٩٤هـ)، وابن أنجب الساعي (ت: ٦٧٤هـ)، وياقوت المستعصمي (ت: ٦٩٦هـ)، وابن الفوطي (ت: ٧٢٣هـ)، ومحيي الدين ابن العاقولي (ت: ٧٩٧هـ).

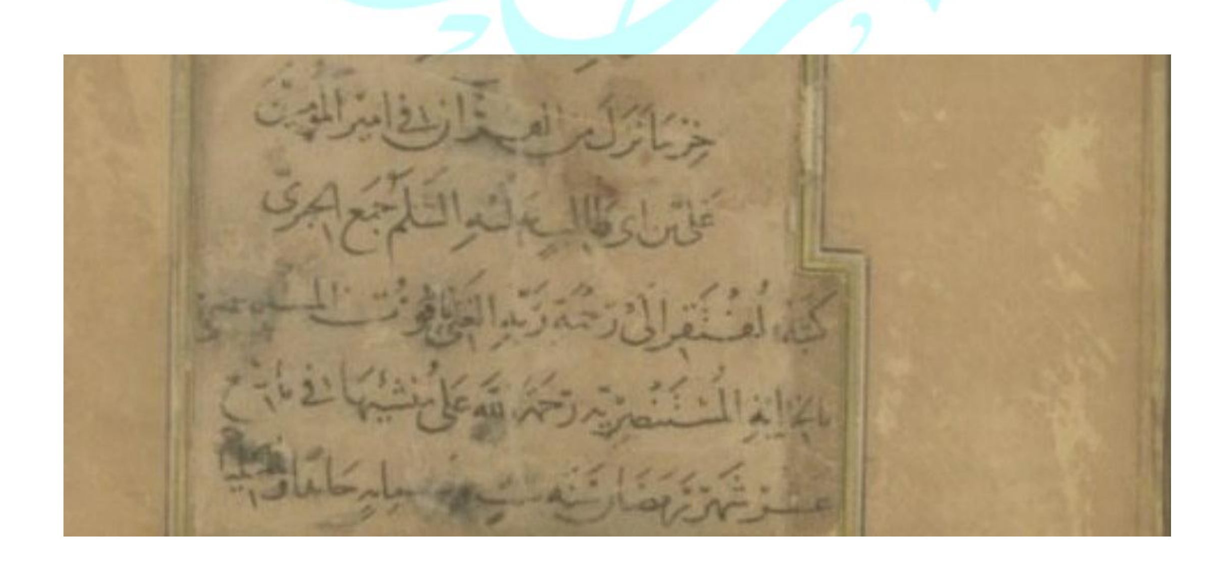
وقد جمعَ الدكتور مصعب ماجد أكثرَ من خمسين مخطوطةً في شتَّى العلوم والآداب، ممَّا كُتب في هذه المدرسة أو سُمع بحضرةِ أهل العلم.

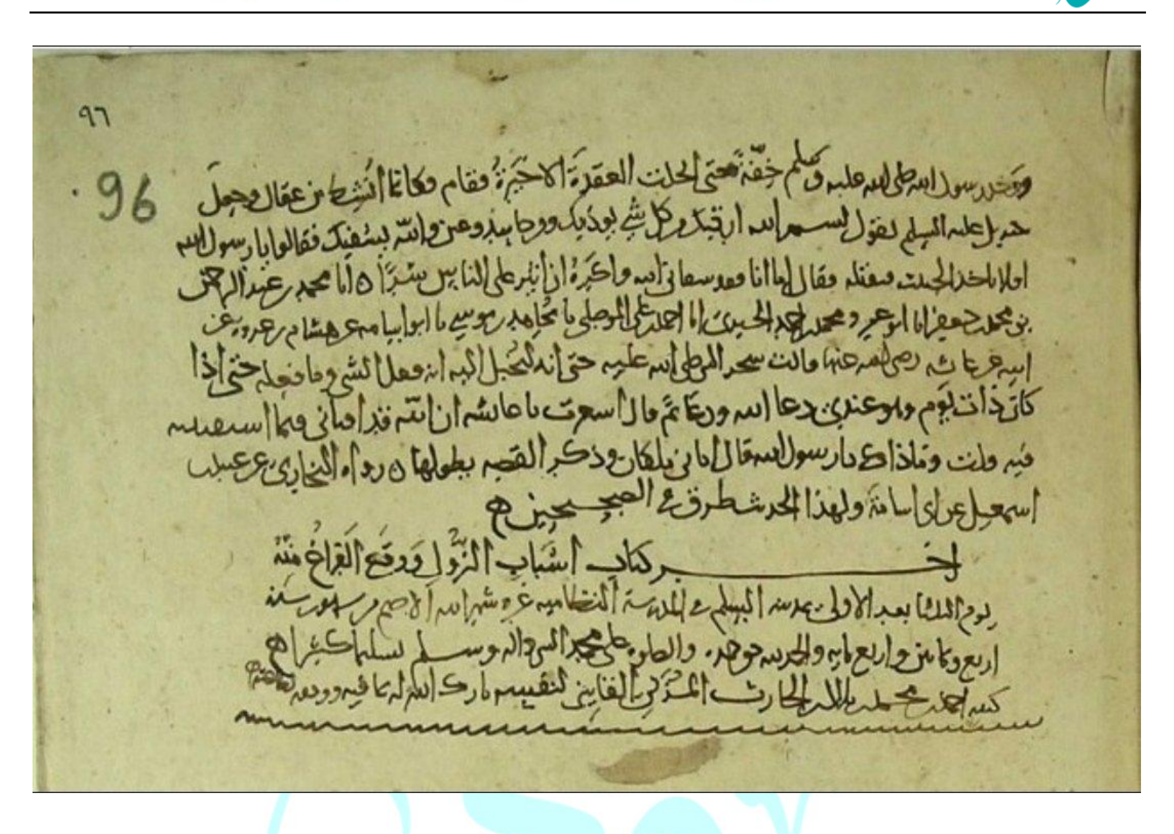
ولكنِّي أستدركُ عليه -أيضًا- نسخةً مراكشية كُتبتْ بين المدرستين النظامية والمستنصرية.

وتمتاز مخطوطات المستنصرية التي عُثر علَيها بأنَّها جميعًا بخطوطٍ مشرقيةٍ، وأنها استقرَّتْ جميعًا في مكتبات خارِج العراق، وأن أقدمها لا يتجاوز سنة (٦٠٦هـ).

نماذج من قيود النسخ:

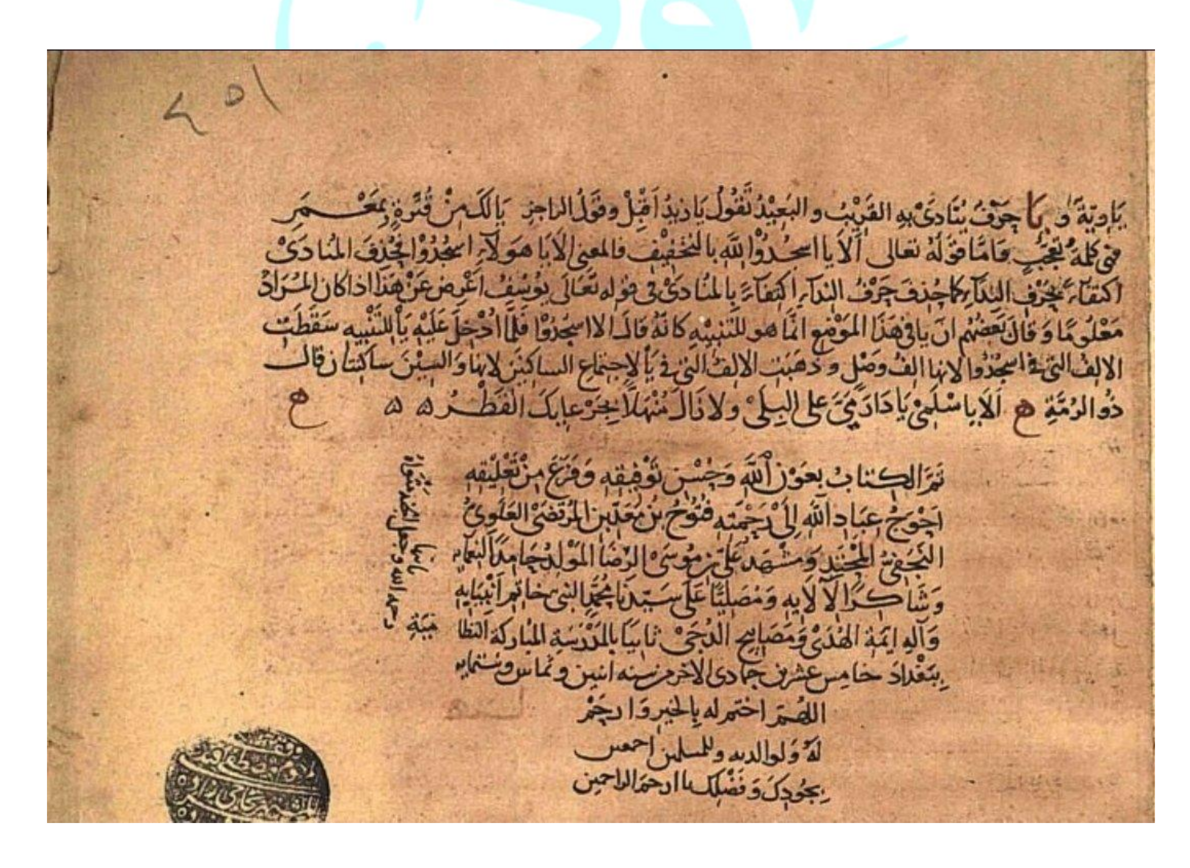
بن الإمام أبي الفتح نصر الله بن رجب بن أبي الفتح المعروف بابن الصيقل الجزري أمتع الله
أهل العلم بطول بقائه وأعلى في مراقي الشرف درجات ارتقائه صاحب هذا الكتاب
أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الصفار الخراساني بدار الحديث بالمدرسة المستنصرية قدس الله
روح بانيها في مجلسين آخرهما يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر الله المحرم من شهور سنة تسع وستين وستمائة
وما بالحاشية ... حال قراءتي من الأصل المبارك الشريف بخط مصنفه ضاعف الله جلاله
يقول المقول صحيح وأسعدني الله تعالى وأجزت له أدام الله ظله
روايتها عني وجميع ما صح لديه ويصح من خطبي ورسائلي وأشعاري
ومنثوراتي ومسموعاتي ومختصراتي وسائر مصنفاتي على الشروط المعتبرة
عند أهل العلم كثرهم الله وكرمهم وأبانهم من الغلط والتصحيف
وكتبه مصنفه نصر الله الجزري حامدا لله على نعمه ومصليا على محمد وآله ومسلما





اسمعيل عن ابي اسامة ولهذا الحديث طرق في الصحيحين

آخر كتاب اسباب النزول ووقع الفراغ منه



ذو الرمة: ألا يا اسلمي يا دار ميّ على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

تم الكتاب بعون الله وحسن توفيقه وفرغ من تعليقه
احوج عباد الله الى رحمته فتوح بن محمد بن المرتضى العلوي
النجفي المحتد ومشهد علي بن موسى الرضا المولد حامداً لنعمائه
وشاكراً لآلائه ومصلياً على سيدنا محمد النبي خاتم أنبيائه
وآله ائمة الهدى ومصابيح الدجى ثاويا بالمدرسة المباركة النظامية
ببغداد خامس عشرين جمادى الاخرة سنة اثنين وثمانين وستمائة
اللهم اختم له بالخير وارحم
له ولوالديه وللمسلمين اجمعين
بجودك وفضلك يا ارحم الراحمين

المعرفة من المستوى الأول

بقلم:
مختار الأخضر الطيباوي

كثيرٌ مِن الشباب يَتعلَّم في سِياقِ النِّقاش والمُناظَرة، بَعضُهم يَستمرُّ على ذلك، وبَعضُهم يَفطن إلى نقائص هذا الأسلوب.

وليسَ هذا عيبًا، لكنَّهُ ليسَ بالمنهج السليم، فعلى الشباب الرجوع إلى الدراسة المنهجية، وإلا لم تكتمل تصوراته، وبقيت لديه ثغرات.

الأسوأ هو الَّذي يَتعلَّم مسألةً أثناءَ تأليفهِ كتابًا -لأنَّ حمَّى التأليف منتشرة اليوم!- فهذا قد يُبهرك في تلك الجزئية، لكنَّه يَسقط في النظرية الكلية، والغالب على هؤلاء أنهم لا يحسنون الكلام -إنْ أحسَنوا- إلا فيما كتَبوا!

يَتعلَّم الناسُ بحسب المتوفِّر لديهم، وقد تَسحب حماسةُ الشبابِ الإنسانَ إلى مجاراة المَوجود، ومع ذلك علَيه أن يَصدُق مع نفسه، فإنها تخبره بما يَنقصُه، فيستدرك النقص، ويطلب الكمال، لأن ذلك ميزة النفوس العالية الَّتي لا توقفها شهوة الشهرة، ومتعة الجماعة، عن السير إلى الأمام.

ليس للمسلمين الآن واجبٌ حضاريٌّ أهمَّ من تكوين علماء أو مفكِّرين من المستوى الأول.

المفكرون -والمقصود هنا العُلماء النُّظَّار وليس المثقفين- عدَّة مستويات، لا يتميَّزون بالشهادات وحدها، ولكن بالإنتاج العلمي المتميز، أو بالتأثير في المجتمع العلمي، وأهمُّ من ذلك يتميَّزون بقوة التحليل وشموليته التوليفية، وبتأصيل المعارف وتنظيمها.

فمثلًا مستوى "ماركس" في الاقتصاد، و"كنط" في هندسة المعارف، و"روسل" في فلسفة المنطق، و"روسو" في السياسة، و"فيران" في الإبستمولوجيا، ومالك بن نبي في اجتماعيات الحضارة... وغيرهم كثير.

وأظنُّ آخرهم في فرنسا: "ألتسيير" و"كلوسكار" و"روني جيرار" و"غارودي"؛ ولم يبق إلا المفكر من المستوى الثاني أو الثالث.

هذا النوع من المفكرين يتميز بالنظرية الشاملة الَّتي تهتم بأبعاد الإنسان الروحية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وإلا فيُمكن أن تجدَ مثلًا شرحَ "دولوز" لفلسفة "سبنوزا" أقوى ما يمكنك الظفر به، ومع ذلك لا يجعلُ منه هذا مفكرًا من هذه الدرجة، و إن كان في بابه كذلك.

فالمعتمَد هنا تكوينُ علماء لهم ثقافة شاملة، وقوة تحليل علمي صارمة، لأن وسائل الفهم في هذا العصر تحتاج -على الأقل- إلى خمس أو ست

اختصاصات، فضلًا عن العلوم الشرعية.

فللتحكُّم في الواقع يجب أن تمنحَ نفسك حقَّ فهمه الممنوع عنك، وذلك بالتمكُّن من: الفلسفة، والتاريخ، والاقتصاد، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والسياسة.

نحتاج إلى هؤلاء ليَخرجَ العلمُ مِن طَور الدعوةِ العامَّة.. من نقاش الشوارع ومناكفات مواقع التواصل، إلى التأصيل الأكاديميّ الجادّ، لأنه من غير هذه الفئة ستكونُ الأفعالُ دونَ وعيٍ، والأحلامُ مفصولةً عن الواقع.

وقوام النهضة: الفعل والحلم.

تقريبًا كلُّ عباقرة الإسلام وحتى الغرب كانوا أقوى من شيوخهم إلا في حالاتٍ قليلة، ما يعني أنَّ المعلِّم وإن لم يكن من هذه الفئة المطلوبة، يمكنه أن يكوّنها، وذلك باختصار الطريق على الطالب، وإفادته إياهم بخلاصات تجربته، وتمرين ذهنه على التصور المطابق، فليس مضطرًّا إلى نسخ نفسه في تلامذته.

مع الوقت والممارسة يُدرك المعلِّم النقصَ في تكوينه العلميّ أو الخلل في منهج المؤسسات العلمية، أو يكتشف سبب ضعف النوعية في الفكر، فيحاول سدَّ ذلك عند الطالب، وبهذا يُسهم في تكوين طلَبةٍ أعلى مرتبةً وأدقَّ فكرًا منه.

العلمُ الآن ليسَ بضاعةً جاهزةً تحفظها، أو يَضعُها الأستاذُ في عقلك، وإنما هو شيئان:

- مَعلومات وفيرة ذات قيمة معرفية عالية وموثَّقة.
- وقُدرة على توظيفها في بناء تصور المسألة.

والمشكلة الحقيقية الَّتي تواجه الطالب: هي حجمُ الجسم المعرفي الذي يَكبُر في كلِّ يومٍ دونَ قدرةٍ على فَهم كلِّ الاختصاصات الَّتي تعني اهتمامه ونوعية فكره، فيصعب عليه استدراك ذلك.

دَور الأستاذ أو الشيخ هو أن يقودك في اكتساب أدوات التفكير، وفهم طرق الاستدلال، ويدلك على العناوين المفيدة في مرحلتك، ومن هذا تكوِّن لنفسك قوةَ التصور وحسًّا نقديًّا يَسمح لك بتحديثِ مَعارفك ومجاراة الجسم المعرفي.

يمكن أن نلخِّص كلَّ ذلك بالتالي: سبر، واستقراء الموضوع، ونظر فاحص بقوة عقلية للاستدلال.

بطبيعة الحال نحتاج إلى تطوير طريقة التعليم المعاصرة على أساس: التنظيم، والاستيعاب للموضوع، والنقاش بالتصور وليس بالمعلومة.

بقاء بعض طلبة العلم في موضوع الحديث الديني وحدَه سببُه ضعفُ الثقافة، وبعضُهم يسعفُه ذكاؤه الفطريّ ونظرُه الاستدلاليّ في فهم الموضوعات غير الدينية لكنها شخصيات قليلة.

بطبيعة الحال ليس مطلوبًا من الجميع أن يكون مفكرًا من المستوى الأول، لكن كذلك لا يجب "العفس" على أقدامهم مِن كل مَن هبَّ ودبَّ.

يَعتقد كثيرٌ منّا أنَ نُخَبنا مهمَّشة، وأنا أعتقدُ أنَّ هذهِ النوعية غيرُ مَوجودة، وأصلًا يَجب على النُّخبة أنْ تكونَ في الهامش لِتَحفظَ حرِّيَّتها.



كُتّاب ونُقّاد ومُفكّرون متقاعدون!

بقلم:
أ.د. غسان إسماعيل عبد الخالق

هل سبق لك أن كُلِّفتَ بقراءةِ مئة صفحة مثلًا، وظللتَ تؤجّل وتؤجّل، حتى إذا لم يبقَ أمامك إلا ليلة واحدة رحتَ تقرأ صفحة وتغفو، ثم تقرأ صفحة وتغفو، ثم ذهبتَ في نومٍ عميق يفيض بأحلامٍ توحي بأنك قد استكملتَ قراءة ما كلِّفت به؟!

هذا ما حدثَ ويحدث مع جُلِّ الكتّاب والنقّاد والمفكّرين الّذين التحقوا بوسائل التواصل الاجتماعي، وصار حضورهم اليومي فيها وعَبرها والانغماس في تفاصيلها الّتي لا تُسمن ولا تُغني من جوع، مقدَّمًا على القراءة والكتابة والتأمُّل، إلى درجةِ اعتبار مَن غاب عن هذه الوسائل منقطعًا عن الإبداع ومَن حضرَ مواصلًا للعطاء، ومع أنّ جُلّ المثقّفين المنغمِسين لم يَكتبوا مقالةً أو يَنشروا بحثًا أو يُصدروا كتابًا منذ سنوات، فيما أنجزَ زملاؤهم الغائبون كثيرًا من المقالات والدراسات والكتب!

ومما يزيد محنةَ المنغمسين بلّةً: عددٌ من الأوهام الّتي تتلبّسُهم والّتي يقف

على رأسها توهُّم التواصل المباشر مع الجمهور جرّاء آليات التفاعل الفوريّ في وسائل التواصل الاجتماعيّ، رغم أنّ هذا التفاعل شكليٌّ وآليٌّ وتَغلبُ عليه المجاملة النمطية المقيتة، ويخلو من محاورة الأفكار ووجهات النظر. كما يقف على رأسها وهَم المواكبة جرّاء الانسياق خلف تفاصيل الأحداث اليومية، وطنيًّا وإقليميًّا ودوليًّا. ولستُ بحاجة إلى القول بأنّ الانجرار خلف هذه التفاصيل اليومية قَمين بتصيير المثقّف معلِّقًا نمطيًّا منافقًا لثلّةٍ من المتابعين السطحيين. وأما ثالثة الأثافي في هذه الأوهام فتتمثّل في اعتقاد المثقّف المنغمِس بأنّ شذراته الّتي يُدرجها بديلٌ حقيقيٌّ عن الإنجاز الكتابي، وبخاصة إذا قُيّضت له المشاركة في ندوةٍ يتسابق نجومُها إلى التقاط الصوَر الّتي صارت تُمثِّل الدليل الأبرز على حيوية المشاركة، وبِغَضّ النظر عن المضمون والمحتوى.

حتّى تكتملَ المأساةُ، فقد داهمتنا جائحة الكورونا، وكادت تَذهب بما تبقّى من تمنُّع هؤلاء المثقَّفين. وبدلًا من أن ينبروا لتأمُّل الواقع والمآلات لهذه الكارثة البشرية التي نَقلت الحياة من حيّز الفعل إلى حيّز الافتراض، انساقَ معظمُهم مع مهازل الفضاء الإلكتروني؛ بدءًا من التفاخر بالإعراض عن القِراءة والكتابة، والاستسلام لحالة البلاهة، مرورًا بتصوير غُرف النوم المهمَلة، وليسَ انتهاءً بنشر صوَر أطباق الطعام الّتي جرَى التدرُّب على إتقانها!

قد يقول قائلٌ: لقد كانت الكارثة قاسية وصادمة إلى درجة إشعار معظم المثقّفين بانعدام الوزن -وهذا صحيح نسبيًّا- ولكن... ألمْ تَكْفهم الشهور

الطويلة الّتي مرّت لاستعادة شعورهم بالتوازن والشروع في ترتيب أولوياتهم، أسوةً بكثير من مثقّفي العالَم المتقدِّم والعالَم الثالث ، الّذين لمْ يدَّخروا وسعًا لتصيير التحدّي فرصةً؟

وقد يقول قائل أيضًا: حسبُنا جلدًا للذات، فمآسينا تكفينا! لكننا لا نَملك ترفَ المراهنة على ما لدينا من كلّ شيء، وبخاصة ما تعلَّق بالثقافة؛ فما لدينا منها لا يُغري بالاطمئنان، لأنها تَشهد حالةً من البطالة المقنَّعة منذُ عشرين عامًا على الأقل! ولمْ يَعد مجديًا الاستمرارُ في اجترار ما كتبه ثلَّة من المبدعين والنقّاد والمفكّرين العرَب في القرن العشرين، لأنّ الأفكار تحتاجُ توليدًا جدليًّا خلّاقا حتى تتطور، وإذا ظلَّت رهينة إعادة الإنتاج الشكلانية فسَوف تَضمر وتذوب. وبأسفٍ بالغ نقول: حتى هذه الإعادة السطحية، صارت إنجازًا نادرًا؛ ما دام أنَّ غير قليل من المبدعين والنقّاد والمفكّرين، صيَّروا صفحاتهم إلى منصّات للمهاترة والنميمة والفكاهة والاستهزاء والشتيمة، إلى درجةٍ يصعب معها تصديق حقيقةِ أنَّ هذا الشاعر المبدع قد صار مهرِّجًا ، وأنّ ذاك الناقد المرموق قد صار حكواتيًّا، وأنّ المفكّر الّذي كان يشار إليه بالبَنان قد صار راجمةً للشتائم!

لماذا الموصل مدينة العلم والعلماء؟

بقلم:
رَعد طَهَ الحيّانيّ

المَوْصِلِيُّ لقبٌ اشتهر به الكثير من العلماء والمبدعين والعارفين عبر التأريخ... كابن الأثيرِ المؤرخ الموصِلِيّ، وأخوَيه، ومحمد بن نصر الموصليِّ، وابن جنِّي عالم النحو الموصليِّ، وأبو يعلى الفقيه الموصليّ، وأبو الحسن علي بن أبي بكر الموصليّ، وأبو زكريَّا المرجاني الموصليّ، وصاعد بن الحسن الموصلي، وابراهيم بن بكر الموصليّ، وغيرهم كثير.

فالموصل امتلكت مقوّمات المدينة الراعية للعلوم والأدب فضلًا عن امتلاكها إرثًا حضاريًا متميزًا ومتنوِّع الأغراض.

وصفها الرَّحالةُ ابن جُبَير في رحلته قائلًا: "هذه المدينة عتيقة ضخمة... حصينة فخمة، قد أخذتْ أهبةَ استعدادها لحوادث الفِتن... وفي المدينة مدارس للتعليم نحو الست أو تزيد على دجلة فتلوحُ كأنَّها القصور المشرفة".

ويقول ياقوْتُ الحَمَويُّ في "معجمِ البلدان": "المدينة المشهورة العظيمة إحدى قواعد بلاد الإسلام قليلة النظير كبرًا وعظمًا، وكثرةَ خلق وسعة رقعة،

فهي محطّ رحال الرُّكبان، ومنها يقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق ومفتاح خراسان، ومنها يقصد إلى أذربيجان، وكثيرًا ما سمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاثة: نيسابور لأنها باب الشرق، ودمشق لأنها باب الغرب، والموصل لأن القاصد إلى الجهتين قلّ ما لا يمر بها، قالوا: وسُمِّيت الموصل لأنَّها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل وصلت بين دجلة والفرات، وقيل لأنها وصلت بين بلد سنجار والحديثة، وقيل بل الملك الذي أحدثها كان يسمّى الموصل، وهي مدينة قديمة الأسّ على طرف دجلة ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى، وفي وسط مدينة الموصل قبر جرجيس النبي".

اهتم أهلها منذ تأسيسها ببناء المساجدِ والرّبطِ والمدارس التي كانت مركزًا لطلب العلم والمعرفة.

وهذه الأسس التي وضعها علماء الموصل وأهلها الأوائل سار عليها أبناؤهم وأحفادهم حتى يومنا هذا.

وهذا ما نراه واضحًا من حرصهم على تعلُّمِ العلومِ الشرعيَّةِ والعلمية.

وعلماءُ الموصل وطلبة العلم فيها ذوو سمعةٍ طيبة بين علماء العالم الإسلامي قاطبة، علماء في الفقه، وعلماء في الطب والهندسة، ونوابغ في التأريخ واللغة واللغات، خطّاطون بارعون وشعراء مبدعون .

أمّا الشجاعة وحسن التدبير فخيرٌ مثال على ذلك، ما حدث مع جيش

نادر شاه في حصاره على الموصل، فقد ظنَّ أن الموصل لقمةً سائغة وصيدًا سهلًا، لعِظم جيشه وقلَّةِ حاميتها، فضرب عليها حصارًا أنهكه وجيشَه ولم ينهكها، فأرسل العيون يأتونه بالأخبار والأسرار، فأسروا رجلًا كبيرَ السنِّ حكيمًا ذا بصيرةٍ فسأله عن سرِّ صمود هذه القلعة الشمَّاء في وجه جيشه الجرَّار؟! فأجابه: إن هذه المدينة لا تجوع ولا تعطش ولا يهمّها حصارك، ففي كلِّ بيت بئر ماء يشربون منه، وأهلها يدَّخرون ويخزنون كل شيءٍ من حنطةٍ وسمنٍ وعسل وملح وجوز وتين وتمر وحتى اللَّحم يخزنونه في برطمانات كبيرة، وزِد على ذلك فهم متحابّون، متراحمون، متعاونون، فكيف لك النصر على مثلهم.

مقومات التعليم

(الطالب والمدرّس والمنهاج)

بقلم:
د. شَوقِي المَعَرِّيّ

• **مقدمة**

لا تستقيم العملية التعليمية إن لم تأخذ هذه المقومات الثلاثة حقها من الاهتمام المطلوب من كل الجهات المسؤولة عنها، بدءًا من وزارة التربية وانتهاءً بالطالب مرورًا بالأهل والمعلم.. وإذا ما أحسنّا التعامل معها فإننا نكون قد أسهمنا في بناء جيل علمي متماسك وقوي.

١ – الطالب:

هو التربة التي تكون مهيأة للزراعة، منذ أن يبدأ الطفل اللفظ والنطق والكلام، أي أن الاهتمام يجب أن يبدأ من الأسرة، ممّن يهتم بالطفل وغالبًا ما تكون الأم هي الأصل في تنشئته، لأنها على اتصالٍ مباشر معه في الطعام والشراب واللباس، ولذلك تكون المهمّة على عاتقها كبيرة، وهنا يختلف

المستوى العلمي بين أمٍّ وأخرى تبَعًا للشهادة التي تحملها، وتلي مرحلة الأم مرحلة الروضة إن وُضع الطفل فيها أو المرحلة الابتدائية في المدارس الرسمية، ولا شك أن هناك فوارقَ كبيرة بين المدرستين الخاصة والعامة.. من حيث الاهتمام والتعليم ولاسيما في المرحلة التي تهيئ الطالب للصف الأول إذ إن اعتماد المدارس الخاصة مناهج أجنبية متميزة تجعله يتفوق على طالب المدرسة الرسمية الذي يُحرَم من هذا النوع من التعليم كما حُرِم من الألعاب وما يتصل بها من وسائل تعليمية تحفز وتنشط العقل والذاكرة والتفكير..

المعروف أن البناء القوي يقوم على أساس قوي متين، فالطالب الذي أُسِّس على مناهج جيدة يفترض أن يستمر إلا إذا عاقته عوائق أو شغلته مشاغل أو أصابته أمور أوقفته عن السير أو متابعة ما بدأ به، من هذه العوائق الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي، وتظهر هذه الحالة بدءًا من المرحلة الإعدادية، وتزداد في الثانوية.. فالجامعية.

٢ – **المعلم/المدرس:**

كثيرون يعتبرون أن المعلم/المدرس هو الأصل في العملية التعليمية، وقد يكون هذا صحيحًا، لأنه صلة الوصل بين الطالب والمنهاج، ويقع عليه عبء كبير يتابع فيه ما بدأت به الأسرة الأم أو الأب..

ولمَّا كان المعلم هو الأساس في العملية التعليمية كان الواجب أن يُهيّأ له كل ما يجعله قادرًا على أداء المهمة، وفي مقدمتها العلم الذي يجب أن يحمله،

وهذا يقع على عاتقه، لأنه هو من اختار هذه الطريق، فما من شهادة حتى الدكتوراه تجعل شخصًا معلمًا، فالشهادة مثل جواز السفر، تسمح لك بالعبور من مرحلة التعلُّم إلى مرحلة التعليم، وما يحصله الطالب عند تخرجه في الجامعة لا يعادل جزءًا بسيطًا ممّا يجب أن يحمله وأنا أعطي مثالًا بحسب اختصاصي، فما يحصل عليه طالب قسم اللغة العربية في الجامعة لا يتجاوز ٢٠٪ عشرين بالمئة مما يجب أن يملكه المعلم من المعرفة..

ولكن الكثيرين يتوقف جهدهم عند الشهادة مع قليل من المعلومات التي تناسب المناهج التعليمية فيكون قد كبَّل نفسه بمنهاج لا يجرؤ على أن يتجاوزه بحرف أو لا يجرؤ أن يجيب عن سؤال واحد من خارج المنهاج الذي يدرسه، وهذا عاينته عند كثيرين لا يُدرّسون إلا الشهادات وخاصة البكالوريا.. فيحفظون المنهاج عن ظهر قلب (بصم)، وربما حفظوا أرقام الصفحات فتباهوا أمام طلابهم الذين جعلوا كل واحد منهم سيبويه زمانه وشكسبير زمانه وخوارزمي زمانه وأينشتاني زمانه..

لذلك لا يفضل هؤلاء تعديل المناهج، كيلا يتعبوا بتحضير منهاج جديد..!

إن المدرس الناجح هو الذي يدرِّس طالبًا كسولًا ويصنع منه مجتهدًا، ومثله المدارس التي تفاخر بطلابها الذين هم في الأصل متميزون ويعملون معهم مع (عدة النصب) ليزيدوا إلى معلوماتهم ما يعادل علامتين.. فقط،

والدليل أن تلك المدارس لا تحجز لطلابها تذاكر التفوّق الأولى.

٣ – المنهاج:

٣-١ ما من منهاج يُرضي الطالب والمدرس والأهل والمجتمع، وهذا طبيعي، وقد تكون نسبة التفاوت في الإعجاب كبيرة بين مادة ومادة، من حيث حجم المادة العلمية ومن حيث طريقة تقديم هذه المادة، فالمادة العلمية في المواد العلمية لا تتغير كثيرًا مثل الفيزياء والكيمياء والرياضيات والعلوم الحية..لكنَّ طريقة تقديم هذه المواد لا تروق للبعض، ونحن نعاني منذ زمنٍ بعيدٍ من كثافة مادة العلوم حتى صارت المادة الأصعب في البكالوريا وتقدمت كثيرًا على الرياضيات.. مِن هنا تصعب طريقة تقديم المادة للطالب من قِبل المدرس.. وتحتاج من المدرس فنًا مميزًا لإيصالها إلى الطالب..

أمّا مواد العلوم الإنسانية (اللغات والتاريخ والجغرافية والفلسفة)، فهي الأصعب من حيث التأليف، لأنها تحتاج أسلوبًا أدبيًا والأسلوب الأدبي أصعب من العلمي القائم على الدقّة في الإجابة (١ + ١ = ٢) لذلك يضمن الطالب أن ينال العلامة التامّة في هذه المواد..

٣-٢ نحن في سورية عدّلنا المناهج كثيرًا تحت عنوان تطوير المناهج..لا أعرض هنا ما أسمعه عن المواد كلها؛ لأنني غير مختص، ولكن سأخصص كلامي بما اطلعتُ عليه وقرأته باختصاصي أقصد اللغة العربية..

كثيرًا ما نشرت أشياء تتصل بالمنهاج للتصويب والتصحيح والتعديل، بعد أن كنتُ قدمت ملاحظاتي للمؤلفين والمقوِّمين تطوُّعًا لِما فيه مصلحة المنهاج التي ستنتقل إلى الطالب والمعلم، ولكن لم يأخذوا بها كلها؛ ولما كنت متأكدًا من صحة معلوماتي كنت أكتب على مسؤوليتي، وكنت أقول دائمًا: هذا رأيي ولا ألزم به أحدًا، ولا أُريد أن أعيد ما نشرته من قبل، ولكن كتبت هذا نموذجًا عمّا يجب أن يكون في مناهجنا. وهذا يتطلب من الآخرين كلٌّ بحسب اختصاصه، لتكون مناهجنا صحيحة علمية، فيخفّ اللوم وتخفّ الشكوى من الحجم وربما من الأسلوب.

٣-٣ إن مناهج اللغة العربية في المراحل كلها ولا سيما المرحلة الثانوية بحاجة إلى إعادة بناء، تكون متسلسلة ولاسيما في القواعد النحوية والصرفية، فمن ينظر في المرحلة الإعدادية يكتشف التفاوت بين ما ورد في التاسع وما ورد في الصفين السابقين إذ لا يعقل هذا الحشد من دروس النحو في التاسع (ومعه النصوص الشعرية) حتى ليشعر الإنسان أنه الأساس.

إننا بحاجة تأليف تقوم على عملية نفض كل ما فيها..وتوزيع الدروس على الوحدات على نحو علمي ومنطقي..ولاسيما النحو فمن يطلع على المادة يكتشف أنها لا تفي بالغرض ولا تُفيد الطالب في الكتابة ولاسيما ما أثبت في كتاب البكالوريا.

٤-٣ إن المناهج المريحة يجب أن تتوافر فيها شروط كثيرة، أهمها:

- الأسلوب السهل الذي يجب أن يعتمد سلامةَ اللغة في كل المواد، ولا يكفي المدقق اللغوي لتكون لغة الكتاب سهلة.

- يجب ان يُؤخذ في الحُسبان أن فئة كبيرة من المجتمع لا قدرة لها على الدرس الخاص؛ لذلك يُفترض أن تُقدم المناهج فيقرؤها كل فرد في المجتمع ويفهمها، يُضاف إلى هذا أن فئة من الطلاب يتقدمون إلى الشهادات أحرارًا..وهؤلاء في معظمهم فقراء..

- الابتعاد عن التبذير اللغوي والإسراف في الكلام الذي يحذف أول ما يحذف من المدرس فيفرح الطالب والأهل..!

• هذه عناوين على الرغم من طولها.. ونحن بحاجة إلى تكامل جهود كل من له علاقة بالعملية التعليمية، لا تقوم على الانتقاء بحسب الأهواء الشخصية أي الواسطة، ولاسيما في التأليف والتقويم.

في الإعجاز البلاغي

بقلم:
د. عَزمي فَرحات عَبد البَديع

ما برِعَ العربُ في فنٍّ مِن الفُنون مثلَ ما بَرعوا في تصْريفِ القَولِ وتَحْبيرِ البَيانِ، يَقولونَ اختيارًا، ويُبْدِعون اقتِدارًا، حتَّى كَثُر فيهم الشُّعراء، وفَشا فيهم الفُصحاء.

وما عَرَفت الدنيا سُوقًا للشِّعرِ إلا في أنديةِ العرَب، وكانتْ للنابغة الذبياني قُبّةٌ من جِلْدٍ في سوق عكاظ، يأوي إليها الشعراءُ من كل حَدَبٍ وصَوْب، وهو يَسمعُ منهم، ويَقضي فيهم بِحُكمه، فيقدّم مَن شاء، ويؤخّر من أساء، وما خبرُ حسّانَ من ذلكم ببعيد.

نزلَ القرآنُ الكريمُ على النبيّ الأمينِ والعربُ على قلبِ رجل واحدٍ في فصاحة اللِّسان وعَراقة البيان؛ فشغلَهم أمرُه، وأدهشهم خبرُه، وأذهلتهم بلاغتُه، وجابههم القرآنُ بالتحدِّي كِفاحًا على أن يأتوا بقرآن مثله أو بِعَشْر سوَرٍ من مثله أو بسورةٍ واحدةٍ من مثله، فحَصَرَت صُدورُهم وخَرِسَت أَلسنتُهم ولَزِمتْهُم حِينئذٍ الحُجّة.

على أنّ أمّة العربَ كما أجادتْ صناعة البيان سَجيّةً أجادتْ نقدَه جِبِلّةً، واسْتدراكاتُهم على الشعر والشعراء معلومة مشهورة، وهُم الذين استمعُوا إلى آياتٍ من الفرقان تُتْلَى على فتراتٍ من الوحْى تَتْرَى، وما وقفوا فيه على لفظٍ قاصرٍ ولا مَعنًى ساقطٍ، مع اتساع مسالك القَول في القرآن الكريم، وكثْرة علومه ومعارفه، كالقصص والأمثال والوعظ والإرشاد والوعْد والوعِيد والحلال والحرام والجنة والنار...

ولا خلاف بين علماء العربية في أنّ القرآن الكريم مُعجزةٌ بيانيّة مَعنًى ومَبنى، ومن جوانب إعجازه الباهرة تَخيُّر مُفرداته، وسلامتها من الضّعف والابتذال، حيث تتنزَّلُ كلُّ مفردةٍ في مكانها اللائق بها الذى لو أُزيل عن مَوْضعِه أَتَى منه إمّا خللٌ فى المعنى أو ذَهابُ رَونقِ الفصاحةِ، وسنشفع التنظير بالتطبيق حتى يكون الناس على بَينة وبُرْهان -إن شاء الله-.

فمن وجوه إعجازه تَخيُّر مفرداته، وأعني بتخيُّر المفردات في القرآن الكريم: دقَّة اللَّفظ في مَوقعه، ومطابقته لمعناه، وسلامته من الضعف والابتذال.

والمفردة القرآنيَّةُ تختصُّ بمَزايا عديدة، فمنها ما يدلّ على المعنى بأصوات الحروفِ وجرسِها، ومنها ما يدلّ على المعنى بالإيحاء والظلال، ومنها ما يصوّر المعنى بطريقة التجسيد والتخييل والتشخيص.

ولنشرع الآن في بيان ذلك على نحوٍ من اليُسر في المقال مراعاة لحال القارئ المُثقّف الذي يحرصُ على أن يُصيب من كلّ فنّ بطرفٍ.

ولا ريب أنّ دلالة الكلمة المفردة تفتقر دائمًا إلى ملاحظة السياق، فهو الروح التي تسري في الكلمة، وتمنحها الحياة بعد الموت، والحركة بعد السكون، كما أنّ الكلمة تختلف من سياق إلى سياق، وتحسن في موقع، وتقبح في غيره.

وكلُّ لفظِ اسْتعارةٍ في القرآن الكريم فيه من المعنى ما لا تنهض به الحقيقة، كقوله تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ} من سورة الأنعام، أيْ: فالق ظلمة الليل بنور الصباح، والفلْق في هذا السياق أبلغ من لفظ الحقيقة كالشقّ ونحوه، ولأنه قال في الآية قبلها مباشرة: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ} لِيُزاوج بين الآيتين في اللفظ المعنى.

وفي قوله تعالى: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} من سورة البقرة، ولفظ الاستعارة أبلغ لأنّ الإفراغ فيه معنى الكثرة وزيادة، والمقام هنا يقتضي صبرًا من نوعٍ خاصٍّ، ولقاءُ العدوِّ مَوطنٌ تزلُّ فيهِ الأقدام.

ولفظ (عَقيم) في قوله تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} من سورة الذاريات، استعارة بليغة، أي: الريح التي لا تلْقح شجرا، تشبيهًا لها بالمرأة العاقر أو الناقة العقيم التي لا تنتج ولدا، وهو لفظ له إيحاءٌ وظلالٌ نفسية كثيفة.

وقوله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} من سورة الحِجْر، واللفظ مأخوذ من صَدْع الزّجاج، والصدْعُ تباينٌ وانفصالٌ تامٌّ، والاستعارة أبلغ للإشارة إلى أن البلاغ المأمور به -صلى الله عليه وسلم- هو البلاغ

المخصوص، النافذ إلى القلوب، والذي يظهر أثره كتَبايُنِ صَدْعِ الزجاج ونحوه.

وقد تستقلُّ المفردةُ القرآنيةُ وحدها بتصوير مشهدٍ كاملٍ بجرسِها وأصواتِ حُروفِها، كما في قوله تعالى: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا} من سورة فاطر، وفي جرْس الكلمةِ (يَصْطَرخونَ) ما يوحي بتداخُل الأصواتِ بَعضها في بعض، مما يَجْمعُ على الكافرين في الآخرة بينَ العذاب البدنيّ والإيلام النفسيّ.

ولفظ (يُدَعُّونَ) في قوله تعالى: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا} من سورة الطور، والدَّعُّ: دفعٌ شديدٌ لا يخلو مِن عُنفٍ، وفيهِ إيحاءٌ بالسخرية والإهانة، وكله مقصود في هذا السياق، سياق التحذير والتهديد.

وقد يَستعملُ القرآنُ الكريم ألفاظًا معيَّنةً بقصدِ النَّزاهة التعبيرية، وذلك في بعض المَواطن الَّتي لا يُستحبُّ فيها التصريح، وهذه المفردات تمتاز بظلالها الكثيفة الموحية.

وهو أمرٌ يَشيع في الحديث عن العلاقات الزوجية من مثل كلمة (أَفْضَى) في قوله تعالى: {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ} من سورة النساء، وهي كلمة تَختزلُ في رحمها كثيرًا من المعاني في تصوير العلاقة بين الرجل وأهله.

والإفضاء لفظٌ يتَّسعُ في دلالته لتصوير العلاقة الحسِّيَّة والمَعنويَّة بين الزوجَيْن، وهو مقصودٌ في هذا السياق؛ لما يثيره في نفس الرجل من معاني العزّة

والترفُّع عن المطالبة بما أعطاه زوجتَهُ من الهدايا والهبات قبل طلاقها.

وفي قوله تعالى: {وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا} من سورة البقرة، وذلك في مَقام التعريض بحاجة الرجل إلى المرأة المطلَّقة إذا كانت له رغبة في الزواج بها وهي ما زالت في عدتها.

وهذا مَقام يُغني فيه التعريض عن التصريح، والإشارة عن العبارة، فتأمَّل خاصية التعبير بـكلمة {السرّ} كناية عن العلاقة الزوجية.

وهذا باب تطيشُ فيه عقول الأدباء، وتَزلّ فيه أقدامُ البلغاء.

النقد
وأثره في الأدب

بقلم:

د. محمود حسين الزهيري

أينما وُجد الأدبُ وُجد النقدُ، متلازمان لا ينفكّ أحدهما عن الآخَر، وإن كان الأدبُ أسبق من النقد فلا يكون نقدٌ إلا إذا كان بين يديه أدبٌ يتحرك فيه ويُصدر رأيه.

النقدُ حاكم على الأدب، بل يتبوأ مكانةَ الأستاذية، فلا غرابة أن يكون النقد من أرقى الدراسات الإنسانية بمفهومه العامّ، فالنقدُ في أساسه ونشأةِ مصطلحه أنّه نابع من نقد الصيرفة وتمييز الدراهم غثّها من سَمينها، فالنقدُ مفهومٌ عام لا يقيَّد بالأدب شعرًا ونثرًا، فنقد الأدب ونقد الاجتماع، ونقد الحديث ونقد الرجال، وغيرها، وفي مجمل معانيها تَرجع إلى الأصل اللُّغوي: التمييز وتخليص الأصيل من الزائف.

لذا كان أثر النقد على الأدب بالغ الأهمية، إذ إنه رافقه من بدايته وسايره إلى العصور الحديثة، فلا يستغني أدب عن نقد، ومن جرّاء ما وصل إلينا من

لمحات نقدية، ولطائف إشارية على الأدب، نلمح أنه كان يتخذ كرسيًا يجلس عليه فيصدر أحكامه، ويوجه آراءه إلى الشعراء والأدباء منذ فجر التاريخ، وما قصة النابغة الذبياني إلا شاهد على ما نقول، ودليل على ما نذهب إليه، قال الأصمعيُّ: "كان النابغة يُضرب له قبّة حمراء من أدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها". ونستطيع القول: لولا النقد لبقي الأدب يراوح مكانه، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، فالأدب أقلقَ النقدَ وأقضَّ مضجعَه، وفي الوقت نفسه النقدُ صوَّب الأدب وصحَّح مسارَه ونفَى عيوبَه، ولم يستطع الأدب الإفلات من قيد النقد على الرغم من محاولات الشعراء والأدباء التخلص منه وتهميشه أحيانًا، فترى كأنَّ خصومةً ما بين الأدب والنقد، ونحن نرى أنها خصومة، غير أنها خصومة شريفة؛ فلا الناقد يكتفي بالنظر والتدقيق، ولا الشاعر يتغافل عما يقوله النقد والنقاد، بل إنه ليرهب قول الناقد فيه، وربما تجرأ فرفض قولهم، وما قصة الفرزدق عنا ببعيد؛ سأله أحدهم على ماذا رفعت "مُجلّفُ" من قوله:

وَعَضُّ زَمانٍ يا ابنَ مَروانَ لمْ يَدَعْ مِن المَالِ إلّا مُسْحـتًا أو مُـجَـلَّفُ

فشتمه، وقال: علينا أن نقول وعليكم أن تحتجُّوا.

فالناقد يطلب من الشاعر المزيد، بينما الشاعر مقيد ببحر، وقافية، وشعور، وخيال، وقيود اجتماعية، وأزمات نفسية تختلج في صدره، وواقع يصطدم به؛ بل لعله لا يستطيع الإفلات منه، غير أن الناقد لا يعفيه ولا

يلتمس له عذرًا.

فلقد أنشد ابن قيس الرقيات عبدَ الملك بن مروان:

إنَّ الحَوادِثَ بالمدينة قَدْ أَوْجَعْنَني وقَرَعْن مَرْوتيهْ

فعلى الرغم من طرب عبد الملك لقوله إلا أنه لم يمنعه من نقده وتناوله بقوله: "أحسنت لولا أنك خنثت في قوافيه"، فقال ابن قيس: "ما عدوت كتاب الله {ما أَغْنى عنّي ماليهْ هَلكَ عنِّي سُلْطانِيهْ}".

على أننا نعودُ إلى القول بدايةً، إلى تَرافُق النقدِ والأدبِ -والعَوْد أَحْمَدُ- من أنّ النقد يصوِّب الأدب ويرأف عليه، على الرغم من القَسوة حينما نراها، ونرى معها ما يطلبه النقد من الأدب والشعر ومن الأدباء والشعراء على السواء، متناسيًا كل همومهم وآلامهم، وكأنه يطلب الكمال والتمام، تمامًا كما يطلب الأب من ولده المزيد من التقدم والرقيّ.

فحتّى في الجاهلية كان النقد -على الرغم من بساطته- يتخذ دور الأستاذ المعلم المصوب، فعندما نقد طرَفةُ المتلمِّسَ في صفة "الصيعرية"، وقال: "استنوق الجمل"، لم يعد المتلمّس إلى ذلك، لأنه أحسَّ أنه خرج عن مألوف الصفة ما بين المذكّر والمؤنّث ، والنابغة يقول شعرًا فيه إقواء، وتغيّر في حركة القافية، ولا يتنبّه لذلك ولم يشعر، حتى دخل يثرب، فأسمعوه غناءً من شعره، وهو قوله:

أمِن آل ميَّة رائحٌ أو مغتدي عجلان ذا زادٍ وغير مزوَّدِ

زعمَ البوارح أنَّ رحلتنا غدًا   وبذاك حدَّثنا الغداف الأسْوَدُ

ففي البيت الأول "مزودِ" بكسر الدال، وفي الثاني "الأسودُ" بضم الدال، ولم يفطن لذلك حتى دخل يثرب، فغنّته الجارية، فتغيّر الإيقاع وجاء نشازًا على الأذن، ففطن لذلك، فلم يعد إلى الإقواء مطلقًا.

إنّ النقد هنا يقوم بدور التصويب والتصحيح، بل إنه لا يجامل، ولا يداهن إلى درجة القسوة والغلظة، فعلى الرغم من أنه نقدٌ فطريٌّ يتّسم بالسذاجة، إلا أنه يتخذ من التصويب والحاكمية سوطًا يُلهب به ظهر من يخرج عن سياقِ مألوف الجماعة وعُرفها.

ومما يؤكِّد أنّ النقدَ حاكمٌ لا يجامِل، ما روي أنه: "تحاكم الزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وعبدة بن الطبيب، والمخبل السعدي، إلى ربيعة بن خدار الأسدي، في الشعر، أيهم أشعر؟ فقال للزبرقان: أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيئًا فينتفع به، وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصّر عن شعرهم وارتفع على شعر غيرهم، وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر".

إن هذه الرواية تؤكد أن النقد لا يعرف المجاملة، ولم يقف عندها بل تعداها إلى الصرامة والقسوة، على ما فيها من تفصيل في الحكم، وإقرار الرأي واستقراره على ما بين يديه، مواجهة غير مواربة أو تورية!

فلا غرابة إذن، أن تجد كبار النقاد فيما بعد اعتصموا بالمقولة، أو الرأي الذي يعدُّ فيه رأي الناقد حكمًا لا مجال للمجادلة، أو المراجعة فيه، كما نلمح عند الآمدي، حين كان يرى أن رأي الناقد كحكم العالم بالصناعة؛ مثل الصائغ صاحب الجواهر ومثل العالم بالخيول وتميز عيوبها من سماتها، كذلك الناقد لا يراجَع في حكمه ولا يعترَض عليه.

وحينما كان القاضي، والعالم بالجواهر وصياغتها، والعالم بالخيول وصفاتها، يتحاكم الناس لديهم لفض الخصومة أو بيان قيمة الأشياء، فإن الناقد لا يقل عنهما، إن لم يكن يربو على ما عندهم، لأنه يَفصل في الأدب وجمال القَول بل يصحِّح الفكر الإنساني ويصوب التفكير، وهو أرقى علمٍ لمخاطبته الإنسان وعقله، وينقي الأدب من شوائبه، ويخلصه مما يحطّ من قدره، وآيةُ ذلك أن ابن قتيبة، وهو ناقدٌ مشهور، في كتابه "الشعر والشعراء"، حينما صنَّف الشعرَ أربعة أضربٍ كان يطمح أن يلتزم الشعراء ما وجَّههم إليه ليعلو أدبهم ويستقيم، على الرغم من تشدده واعتراض بعض النقاد ممن جاء بعده على حكمه على بعض الأبيات، مثل أبيات كثيّر عزّة، حيث عدَّها ممن حسُن لفظه وساء معناه، في الوقت الذي عدَّها ابنُ جنّي فيما بعدُ أنها أبيات جميلة تحمل معانيَ عظيمة، وألفاظًا شريفة، ربما تظنّ أيها القارئ الكريم، أنّ ذلك تناقض في قولي وفكري، ولك الحقُّ في ذلك، لكنَّني سأقول لك قولًا مهمًّا جدًا لنقف عليه ونَعيه: إنّ أيَّ نظرية نقدية تكون راقية في زمانها وعصر منتجها، تتلقى

بالقبول وإن وُجد بعضُ الاعتراض! فإذا مضى عليها الزمن أخذت في السآمة والملل، أو بَهت بريقها، وربما أصابها الوهن والشيخوخة والهرم وربما اندثرت! وحينها لا بد من ترميم، أو تجديد، لإعادة الحيوية إليها.

لا أقول ذلك جزافًا أو ضربًا من الخيال، لكنني أُلْفت النظرَ إلى التأمل في نظريات عديدة وكثيرة ظهرت في الأدب العربي، كل واحدة كانت رائدة في زمانها، ثم تأتي بعدها أخرى فتدحرها أو تؤكدها أو تجددها أو تعيد صياغتها وعرضها للدارسين، وذلك محسوس مشاهَد من عصر الأصمعي، والجاحظ، والآمدي، وحتى الجرجاني، لكن بعض تلك النظريات كُتب لها القبول، ولاقت استحسانًا من الدارسين، فأجروا عليها دراسات وتجديدًا وصياغةً أحيَتْها وبَلورتها بلُغة العصر.

إنّ ذلك يقودنا إلى ما بدأنا به الحديث، من أنّ الأدب والنقد مترافقان لا يفترقان على ما بينهما من خصومة شريفة! وحين كان الأدب، كل الأدب إنسانيّ، فإنّ النظرة الإنسانية متجددة متغيرة بل متقلبة على مرِّ الزمان؛ ومن هنا نرَى تأثير النقد على الأدب، ونُدرك كذلك في العصر الحديث كثرة النظريات الأدبية الحديثة الغربية وغيرها، وظهور إحداها تلو الأخرى من الكلاسيكية إلى الرومانسية إلى البنيوية إلى السياقية إلى السيميائية إلى التناص ثمّ الحِجاج وعلْم النصّ وغيرها.

لنقول في النهاية ليس هناك نظرية أدبية جامعة مانعة على مرِّ التاريخ

والزمان، فكما كان الأدب متجدِّدًا والنظرة الإنسانية متجدِّدة متقلِّبة، فكذلك النقد يواكب ذلك بتجدُّد وتقلُّب!

فالأدب نابع من انعكاس الواقع، ممتع أحيانًا، ومؤلم أخرى، وناقم تارة، وساخط في أكثر أحيانه، كذلك نلحظ النقد يتبع ذلك، ويتتبَّعه، بالقسوة تارة وبالخصومة أخرى، وقلَّما يكون راضيًا!




رؤى
نروي لنرتوي

عالَم الكُتب



مِن يَوميّات مُحقّق

بقلم:
أ.د. عبد الحكيم الأنيس

فرغتُ من قراءة كتاب (**يوميات عالم**: **يوميات العلامة أحمد محمد شاكر عام ١٩٥٠م = ١٣٦٩/١٣٧٠هـ**)، حقّقها وشرَحها وصوّرها أشرف عبد المقصود، وصدرتْ عن مركز الورّاق للتراث، في الكويت (١٤٤١هـ- ٢٠١٩م)، في (٤٤٦) صفحة.

والكتابُ جدير بالقراءة لأسباب عدَّة:

منها: طرافة موضوعه.

ومنها: أهمية ما فيه من معلومات عن كاتبِ اليوميات (أحمد شاكر)، وأعماله وعلاقاته بأهل عصره: ملوكاً وأمراء ووزراء وعلماء، واهتماماتهِ العلميةِ والأدبيةِ، وإنجازاتهِ. وفيه بيان دعم بعض الدول له ماليًا وعِلميًا في طباعة تحقيقه مسند الإمام أحمد بن حنبل.

ومنها: ظهورُ نصح الشيخ أحمد شاكر بإعداده تقريرًا مهمًّا لسلامة التعليم والقضاء.

ومنها: بيانُ رأيه في بعض أهل عصره ممّن خالَطهم وداخَلَهم.

وغير ذلك -وهو كثير-، مع أنّ الشيخ جرى على الإيجاز، والاقتصار على ذِكر رؤوس أقلامٍ في هذه اليوميات.

وقد بذل المُعتني جُهدًا كبيرًا مقدَّرًا في خدمة هذه اليوميات، وحشَا حواشيه بتراجم نافعة، وتوضيحات ضرورية، وزياداتٍ مبصِّرة، وقدَّم له مقدِّمات مهمّة، وأورد صورًا كثيرة زادت الكتابَ تشويقًا، وذيَّله بفهارس متنوّعة كاشفة. وليتَ حجم الحرف في الحواشي كان أكبر مما هو عليه، فقد أرهقتني نعومتُه.

وأسرةُ آل شاكر أسرةٌ علمية شاعتْ أخبارُها منذ أكثر من قرن.

وأحمد شاكر محدِّث أديب، أحدثتْ أعمالُه نهضةً حديثيّةً، وقد تركَ عددًا مِن أعماله دون إكمال، وقد تُوَضِّحُ يوميّاته سببًا مِن أسباب ذلك، وهو كثرة علاقاته، ومشاركاته الاجتماعية، وازدحام أوقاته بالزيارات: زائرًا ومَزورًا، ويَندر يومٌ لم يخرج فيه من بيته... ولا أجزمُ بهذا، فقد يكون لهذا العام في حياته خصوصيةٌ، ذلكَ أنَّه كان يُعاني آثارَ إحالَته التعسُّفية على التقاعد، ومحاولته العودة إلى عمله -وكان قاضيًا كما هو معروف-...

رحم اللهُ أحمد شاكر فقد كان شعلةَ علم، وذكاء، ونشاط، وإخلاص. والثناء لا يستلزم ادعاء العصمة.

وشكراً للمعتني بأحمد شاكر وبأعماله، ومنها هذه اليوميات لعام (١٩٥٠م). ولي ملحوظة على تسمية العناية بهذه اليوميات وغيرها: تحقيقًا.

وددتُّ لو خَلا من الأخطاء المطبعية؛ بمراجعته أكثر.

والشكرُ موصولٌ لأخي سيِّد أحمد نورائي لإعارتي هذا الكتاب، ولم يمنعني من اقتنائه سوى الغربة وظروفها.



القاموس المحيط والقابوس الوسيط

د. عبد الله الشمراني

كتاب **القامُوسُ المُحيطُ والقابُوسُ الوَسيط**[١]، من كتب المعاجم العربية، ومؤلِّفه الإمام محمد يعقوب الفيروزآبادي -رحمه الله تعالى- (ت ٨١٧هـ).

وقد سار فيه على منهج الجَوهَري في معجمه (الصِّحاح)، حيث رتبه على حروف الهجاء باعتبار آخر حرف من المادة، وجعله في ثمانية وعشرين بابًا، وتحت كل باب فصولًا، واعتبر فيها أول حرف من المادة بعكس الأبواب.

وأصلُ القاموس المحيط -كما صرَّحَ المؤلِّف في مُقدِّمته- أنَّهُ جمعٌ لخلاصةِ معجمَين: (المُحْكم) لابن سِيدة، و(العُباب) للصاغاني، مع زياداتٍ كثيرةٍ، وميَّزَ المواد التي لم ترِد في (الصِّحاح) للجوهري بعلامةٍ.

وعلى كثرةِ موادّ الكتاب، إلّا أنه يُعدُّ مختصرًا بالنسبةِ للأُصول، وهو خالٍ منَ الشَّواهِد، ويُعدُّ مِن أنفسِ المراجعِ في بابهِ، والعمدةُ عليه لدى جُلِّ الباحثين.

(١) «القاموس المحيط»؛ مؤسسة الرسالة (بيروت)؛ ط السادسة (١٤١٩هـ).

طُبع في مجلدٍ كبيرٍ، وسيأتي الكلامُ على طبعتهِ الأولى.

- **تَنْبيهاتٌ:**

التنبيه الأول: يتناقلُ الناس أنَّ العنوانَ الكاملَ للكتاب هو: (القامُوسُ المُحيطُ والقابُوسُ الوَسِيطُ فِيما ذهَبَ مِن لُغةِ العَربِ شَمَاطِيط)، وهذه التسميةُ معروفةٌ قديمًا، وذكرها غيرُ واحدٍ، منهم العلامة الزَّبيدي[1]، والكُتبي حاجي خليفة[2].

وعندي أنَّها تسميةٌ غيرُ دقيقةٍ؛ لِما يأتي:

١- أنَّ المُصنِّفَ نصَّ على تسميتهِ في أوَّلِ الكتابِ، وفي آخِرِه.

فقال في آخرِ خطبتهِ للكتاب: (وأسمَيْتُهُ: القامُوسَ المُحِيط)[3].

وقالَ في آخرهِ: (هذا آخِرُ القَاموسِ المُحيطِ، والقَابُوسِ الوَسيطِ، عُنِيتُ بجَمْعهِ، وتألِيفهِ...)[4].

وجُملةُ (القَابُوسِ الوَسيطِ)، تحتَمِلُ أنْ تكونَ تَتِمَّةً للعُنوان، وتَحتمِل أنْ تكونَ وصفًا للعنوان (القامُوس المُحيط)، والثاني أقربُ؛ إذ لم ينصَّ عليها في مُقدِّمتِه.

والأولى الالتزامُ بتسميةِ المُصنِّفِ، التي نصَّ عليها في أكثر من موضعٍ.

٢- أنَّ التسمية الطويلة، والمسجوعة، والثقيلة، لم ترِد في نُسَخهِ الصَّحيحة.

يقولُ شارحه الإمام مرتضى الزَّبيدي –رحمه الله- (ت ١٢٠٥هـ):

---

(١) «تاج العروس» (٧٣/١)، (٥٧٥/٤٠)، وبنحوه في (٢٩٢/٩)، وفي (٢٩٤/٢٠) ذكرَ نصفَ التسميةِ فقط.

(٢) «كشف الظنون» (١٣٠٦/٢).

(٣) «القاموس المحيط» (ص ٢٧).

(٤) «القاموس المحيط» (ص ١٣٥٧).

«يُوجدْ في بعضِ نُسخِ المُقلِّدينَ، التَّعَرُّضُ لِبَقيَّةِ التَّسمِيَةِ، التي يُورِدُها المُصنِّفُ في آخرِ الكتابِ، وهوَ قولُهُ: (والقابُوسُ الوَسِيطُ)، ففِي بعضٍ الاقتِصارُ علَى هذا، وَفِي أخرى زيادَةٌ: (فِيما ذهَبَ مِن لُغةِ العَربِ شَمَاطِيط)، وكُلُّ ذلك لَيسَ في النُّسَخِ الصَّحيحَة، ويَرُدُّ على ذلك -أيضًا- قوله: (لأَنَّهُ) أيْ: الكِتاب (البَحرُ الأعظَمُ)؛ فإنَّ هذا قاطِعٌ لبَقِيَّةِ التَّسمِية»[1]ا.هـ.

التنبيه الثاني: حصلَ شيءٌ منَ النَّقصِ والوَهم في (القامُوس)، فتعقَّبه جماعةٌ؛ منهم:

١. داود زاده، في ((الدُّرر اللقيط في أغلاط القاموس المحيط))[2].
٢. الزَّبيدي، في ((تاج العروس)).
٣. الكَوْكَباني[3]، في ((فلك القاموس))[4].
٤. الهُوريني، في ((حواشٍ)) عليه، ستأتي بعد قليلٍ.
٥. الشِّدْياق[5]، في ((الجاسوس على القاموس))[6]، رحمهم الله.

(١) «تاج العروس» (٧٣/١).

(٢) «الدرر اللقيط»؛ محمد بن مصطفى داود زاده (ت ١٠١٧هـ)؛ت سكينة بنت عبد الله الكحلاني؛ رسالة ماجستير؛ جامعة أم القرى (مكة المُكرمة)؛ سنة (١٤١٧هـ)؛ ولم أرَه مطبوعًا، والله أعلم.

(٣) المُحدِّث: عبد القادر بن أحمد، الحَسَني (ت ١٢٠٧هـ)، عالمٌ مجتهدٌ، يمنِيٌّ، زَيدِيٌّ، وأحدُ شيوخ الإمام الشَّوكاني -رحمه الله- (ت ١٢٠٥هـ)، وهو من ذرية الإمام المهدي أحمد بن يحيى.انظر ترجمته في: «البدر الطالع» (ص٣٩٩)، و«نيل الوطر» (٤٤/٢)، «الأعلام» (٣٧/٤)، و«هِجَر العلم» (١٨٩١/٤).

(٤) «فلك القاموس»؛ ت. إبراهيم السَّامرائي؛ دار الجيل؛ (بيروت)، ط الأولى (١٤١٤هـ).

(٥) «الأديب»: أحمد فارس أفندي الشِّدياق (١٣٠٤هـ)، لبناني، مارُوني، كان نصرانيًا فأسلمَ، وهو لُغوي، صحفي، رحَّالة، ومن كِبار أُدباء عصره، ومنشئ «صحيفة الجوائب» في «الأستانة»، وهي أولُ صحيفةٍ عربيةٍ. انظر ترجمته في: «الأعلام» (١٩٣/١).

(٦) «الجاسوس على القاموس»؛ مطبعة الجوائب (إسطنبول)؛ ط الأولى (١٢٩٩هـ).

التنبيه الثالث: طُبع الكتابُ قديمًا سنة (١٢٧٢هـ)، في (مطبعة بولاق بـ(القاهرة)، وصدر في أربعة مجلداتٍ، بعناية جماعةٍ، منهم العلامة الهُوريني[1] -رحمه الله-، ووضعَ له مقدمةً نفيسةً، وكتبَ عليه (حواشٍ)، و(استدراكاتٍ)، و(تعقُّباتٍ)، اكتملَ بها الكتاب.

وكثيرٌ من طلبةِ العلمِ يقرؤون حواشي الهُوريني، ويستفيدون منها، وينقلون عنها، ولا يعلمون مَنْ كاتبها، وصُورَت الطبعةُ كثيرًا، حتى أنَّ الطَّبعات الحديثة ومنها طبعة (مؤسسة الرسالة)، استفادت منها، ومن حواشِي الهُوريني.



(١) العلامة: نصر أبو الوفاء، الهوريني، الأزهري –رحمه الله- (ت ١٢٩١هـ)، رئيس قسم التصحيح في «المطبعة الأميرية»، وأحد مشاهير المُصحّحين بـ «مصر»، وله جهودٌ مباركة في تصحيح ما تمَّ نشره في زمنه، وله «حواشٍ» مفيدةٌ على الكتب التي قام بتصحيحِها. وله «المطالِع النَّصرية للمطابع المصريَّة في الأصول الخطية»، وطبع كثيرًا بعنوان: «قواعد الإملاء»، وهو من أنفس كتب الباب، ولعلَّه أوَّلُ عملٍ يجمعُ مسائلَ البابِ في كتابٍ واحدٍ، وربُّما كتبه كونه مشتغِلًا بتصحيح الكتب؛ يدلُّ على ذلك عنوانه، وليس من ألَّفَ مُنظِّرًا، كمن ألَّف وقد مارسَ واشتغل بما ألَّف فيه. انظر ترجمته في: «الأعلام» (٢٩/٨).

النصوص الأدبية



عند باب الشيخ محمد

حِكاية:

حسَّان الحَديثيّ

الروحانيات هذا العالَم الواسع الذي يعيش به كثير من البشر هو عالمٌ متاحٌ يستطيع ابن آدم أن يراه ولكن بعقله، ويستطيعُ أن يَلِجَه أيضًا ولكن من بابٍ واحدٍ هو باب الخيال.

كان عمري عشرة أعوام حين قالت لي أمي ذات صباح وهي توقظني: قُم وأعِن جيراننا الجدد في تفريغ أَغراضهم من الشاحنة فقد وصلوا قبل قليل، لم أرَ في الأمر حاجةً ملحّةً في النهوض، ولم أجِدْ شأنًا يجبرني على ما أرادتني فعله فتقاعستُ وعدتُ إلى نومي، ولكنها أعادت الكرَّة وقالت: يقولون إن جيراننا هُم بيت القاضي الجديد فلا تتوانَ يا بُني، اذهب وأعِنهم.

شعرتُ بالاطمئنان وقلتُ لها الأمر بسيط فإذا كان جيراننا هو قاضي المدينة ستجدين حوله الكثير ممّن يُعينه وأهلَه على تفريغ الشاحنة.

امتَعضتْ أمي من كلامي -رأيت ذلك في وجهها- وقالت بنبرةٍ لم تخلُ من الأسف: أنا أتكلّم عن جيراننا وليس لنا شأنٌ بمهنته يا ابني.

شعرتُ بكلامها وفهمتهُ وأحسستُ بالحياء المشوب بالغباء أمامها، فانطلقتُ على الفور لتكون يدي مع أيدي بضع رجال وشباب لا أدري إن كان القاضي أحدهم ولكنّي وجدتُ فتىً بعمري يحمل الخفيف من الحاجات علمتُ أنه ابن القاضي فكنت معه في حمل الأشياء، وحسبتُ أني وجدتُ صديقًا جديدًا في الحيّ ولم أعرف اسمه بعد.

في المساء حين همّتْ أمي بزيارتهم للترحيب بهم في حيِّنا رأتني أهمُّ بمرافقتها فأخذتني معها وحين دعتهم أمي إلى وجبة الغداء -وهو عُرفٌ قديم حين ينزِل جارٌ في الحيِّ يقوم أهل الحيِّ بدعوتهم لعدَّة أيام ترحيبًا بهم وبنزولهم بينهم- غير أن زوجة القاضي بقيت صامتة على استحياء ثم طلبت أن تأخذ إذن زوجها قبل الردِّ، وبعد بضع دقائق عادت بوجه تعلوه علامات الخجل وقالت لأمي: لن نستطيع تلبية الدعوة. ثم جاء بإثرها جارُنا عالي الجناب واستأذن الدخول إلى غرفة الضيوف التي كنا فيها للسلام على أمي وتقديم الاعتذار عن قبول الدعوة وأمي لا تكاد تصدِّق، وحين شعر بحراجة الموقف وقف أمام أمي وقال بأدبٍ بعد أن شكرها: أنا قاضي المدينة ولن أستطيع العدل في قضية يكون فيها الخصم هو جاري الذي أكلتُ في بيته فاعذريني لن أستطيع تلبية دعوةٍ من أيِّ جار.

سكتت أمي بين قوة الحجة في كلام جارنا القاضي وبين وطأة العرف في أداء الواجب، عدنا إلى بيتنا خائبَين ولكن أمي في الصباح كانت قد بدأت

بطبخ وجبة الطعام غير مبالية بما قاله الرجل حتى إذا انتصف النهار حملنا الطعام إلى بيت القاضي ووضعناه في باب البيت وعندما خرجت إلينا زوجة القاضي قالت لها أمي: هذا غداؤكم أتينا به إليكم ولن يكون للقاضي حُجَّة فليس هناك دعوة يُلبيها في بيت أحد.

كانت حجةُ أمي عظيمةً داحضةً أدّت بها الواجب وأبقت القاضي في بيته وعند كلمته.

في اليوم التالي جاءت زوجة القاضي إلى أمي تُقدِّم الشكر والامتنان، وقد سمعتُها تقول لأمي: أنها رأتْ في المنام كأنها تسكن في بيت جديد على حافّةِ نهرٍ، ورجل يعتمر عمامة خضراء على الضفة الثانية من ذلك النهر يشير لها بيده ويرحب بها في مسكنها الجديد، سكتتْ أمي ولم تجبها وأخذتْها وصعدت بها إلى سطح دارنا وقالت لها: هل ترين الجبل ذاك عبر النهر؟

قالت السيدة: نعم.

قالت أمي: نحن نسمي تلك الأرض "الجِزيرة" -بكسر الجيم-.

فهل ترين تلك القُبّة الخضراء المنتصبة فوق الجبل؟

ردَّت السيدة باستغراب: نعم أراها.

فالتفتت إليها أمي وقالت: إنها قبر الشيخ محمد الرجل الصالح الذي رحَّب بكِ في رؤياك.

كنتُ أقول لأمي بعد أن ذهبت زوجة القاضي مستبشرة بتفسير رؤيتها: الشيخ محمد مزار لرجل لم نرهُ ولا نعرفُه، يفصلنا عنه زمنٌ طويل، ونهرٌ عريض، كيف يرحِّبُ بهذه السيدةِ وأهلها؟

كانت أمي تجيبني بابتسامة المطمئن وتقول: حين يموتُ الناس تبقى أرواحهم حاضرةً كحياتهم فتطيبُ بطيبهم، وتسوءُ بسوئهم.

صحيحٌ أني لم أعرْ للأمر أهمية ساعتها وكان يقيني أن جدار الموت أعظم من أن تنفذَ منه أرواح الراحلين، ولكن استقرّ في خَلَدي أن هناك عالَمًا آخر غير الذي نعيش فيه يؤثر فينا ولا نؤثر فيه. إنه عالَم الأرواح....

في الشتاء حين تمطرُ السماء، ويصيب الأرضَ سحرُ الماء تهتزّ وتُخرج ما في بطونها من جمال فتُمرع الجِزيرة وتصير بساطًا أخضر مدّ النظر فتهيئ أمي المتاع ليلة الجمعة لنعبر النهر إلى الجِزيرة وننعم برحلةٍ في يوم شتائي دافئ قُرب مزار الشيخ محمد.

بضع خطوات تفصل بيتنا عن ضفة النهر نقطعها مشيًا وكلّما قابَلنا أحدٌ وسألنا عن وِجهتنا قُلنا له بدون وعي: إلى الشيخ محمد، وكأننا ذاهبون لأحد من الأحياء، كنتُ أضحك في داخلي وأقول: نحن ذاهبون للنُّزهة أمّا الشيخ محمد فقد شبِع موتًا.

كان زورق عمي لطيف واسعًا جدًا -أو هكذا كنت أراه- يتَّسعُ لنا جميعًا

مع فرْشِنا وأواني الطبخ وسلال الخضار والخبز واللحم ولوازم الرِّحلة، وما أن نصل الضفة المقابلة حتى نبدأ بلمِّ الحطبِ من يابس الصفصافِ على جرف الفرات لنشب النار ويشرع النساء بتحضير وجبة الغداء.

كان عمي لطيف قويًا، كنت أشعر بساعده الأسمر وهو يُمسك بمجدافه الخشبي وما أن يركز رأسه بضحل الماء على الجرف ويدفع به الأرض حتى يسُود الصمت من الجميع لكن عينَي عمّي لطيف تبقيان مسمرتان في وجه أبي الجالس في مؤخِّرة الزورق طيلة الرحلة لعلّه نوعٌ من الاحترام والتبجيل.

كان الزورق قلقًا أول مسيرته وكانت بعض موجات الفرات جريئة عليه فيُشعرني ذلك بالذُّعر فأُحكم قبضتي على كتفِ الزورق تارةً وعلى كفِّ أبي تارةً أخرى حتى رأيتُ عمي لطيف يضربُ الموجة إثر الموجة برأس مجدافه المسطّح فيردها إلى الوراء ردًّا فيذعن النهر لضربته، وينسابُ الزورق بلطفٍ، ويشق حيزومُه الماءَ شقًا فيجري فيه جريان مقص البزّاز في لطيف القماش وعينه لمّا تزل مسمرة بوجه أبي المتكئ في صدر الزورق فيطمئن قلبي، ويذهب عنّي الخوف من النهر.

كان الوقت ضحىً حين رسى بنا الزورق تحت الجبل الذي يعتليه المزار وكان الصعود حادًّا جدًا إلى قمّته نستطيعه نحن الصغار أما أبي وأمي وبقية الأهل فيلتفّون من ناحية السفح الأخرى للجبل فهي أسهل بالصعود.

أعدَدنا مكان الطبخ على مقرُبةٍ من مكان جلوسنا على بُعد مئة من الأمتار

من قبَّة الشيخ محمد، النساء منشغلات بإعداد الطعام، والرجال حول أبي، ونحن الصبية نركضُ بين المزار والمجلس وكلّما اقتربتُ من قبة المزار سرقتُ النظر من بابه الخشبي القديم النصف مفتوح، كنتُ أرى في داخله شيئًا مستطيلًا مرتفعًا عن الأرض قليلًا بعرض متر وطول مترين مغطى بقماش أخضر لامعٍ كوجه لحاف أبي.

كادت قدمي تأخذني إلى داخل المزار غير مرّة غير أن روحي تأبى الدخول وكأني سأُفسدُ بدخولي خلوةَ المكان وصمتَه غير أني بعد رواح ومجيء مرارًا وتكرارًا بين المزار ومجلس أبي أخذتني جرأتي حتى وقفت ببابه، كان أشبه بغرفة بسيطة يتوسطها ذلك المستطيل حوله بُسُط نظيفة وتحوطه جدران ممرَّدة بالجصّ بشباك واحدٍ مطلٍّ باتجاه القِبلة يصعدُ بناؤه ليتحدَّب ويصير دائريًّا ثم ليشكل قبةً دائرية صغيرةً تتناسب وحجم المَزار.

كانت الغرفة باردةً حدَّ الارتجاف، وصامتةً حدَّ الخشوع، وخاليةً حدَّ الرهبة تشبه ببردها وصمتها برد وصمت الموتى، لأجل ذلك أشعرتني برهبةٍ وخوفٍ كخوف الأطفال من الظلام والمطر ففررتُ من المكان وعدتُ راكضًا إلى مجلس أبي وجلستُ لصقًا به فأدرك ما اعتراني، وانتبه لما ألمّ بي، ثم التفت إليّ وقال: الأمواتُ ضعفاء بسطاء وحيدون، نحن نَذكرُهم فندعو لهم، ونتذكّرهم فنزورهم ونقف على قبورهم لنتصدَّق عليهم بدعاءٍ أو بآيةٍ نقرؤها عند ترابهم الدارِس.

ثمَّ نهضَ من مجلسه وأخذني من يدي ومشى بي نحو المزار حتى إذا وصلنا دفعَ الباب بيُسر، وخلعَ نعله ثم دخل ودخلتُ وراءه، وقف جاعلًا القبر بينه وبين القِبلة وفتح يديه ثم سمعته يقول: {الحمدُ لله ربِّ العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ...}، وكأنه يعلِّمني ما أقول فصنعتُ مثله، وردّدتُ وراءه ببطءٍ وتُؤَدَةٍ فلمَّا رأيته انتهى من التلاوة مسحَ وجهه بكِلتا يديه، فقلدتُّ فعله ومسحتُ وجهي مثله بكلتا يدي فحدث شيءٌ عجيب: أحسستُ أن وجهي صار ملتهبًا بالضياء مشعًّا كأنما تجمَّع فيه نور المكان، أو كأنما تحوَّل إلى مرآة تعكس نور الشمس، لقد صار مشرقًا كمصباح سيارة فصِرت بحالة أخافتني إذ لم أعهدها من قبل كما أنها لم تحدث معي بعد ذلك اليوم أبدًا.

لم تطل هذه الحالة إلّا بضع ثوانٍ ثم عاد وجهي إلى طبيعته، لم أُخبر أبي شيئًا عمّا حصل، وخرجنا سويةً غير أني لم أذهب معه إلى مجلسه وإنما جلستُ بجانب المزار، وأسندتُ ظهري إلى حائطه، وبقيت على تلك الحال ساعة أو أكثر أُفكر في تلك اللحظة المضيئة. كانت تلك المرَّة الأولى التي أدخل فيها المزار وكانت الأخيرة أيضًا ولا أظنني سأدخله.

بقيَتْ هذه الذكرى مطبوعةً في مُخيلتي راسخةً في ذاكرتي أمرُّ عليها حين تمرّ ببالي فأصمت قليلًا لأجد تفسيرًا لها ثم لا ألبث حتى أتركها وأنساها لتعود مرَّةً أخرى بعد حين...

أيها المزار البعيد أعلمُ أن فيك جسدًا لبشرٍ لا أدري مَن هو وكيف مات ومتى دُفِن، كما لست أدري إن كان شيخًا استنفدَ الحياة أو أنه فتىً قضى ولم يُبِلَّ حياتَه من كدرِها بل لست أدري إن كان اسم من فيك محمدًا...

غير أني أعلم أنّ روحَ مَن فيك روحٌ طيبةٌ وذاك الضوء الساطع في وجهي رسالة منك تعرّفني بك، وتردّ عليَّ السلام الذي ألقيته على شاهدك والدعاء الذي رفعته عند ترابك.

بعد حين اتخذَت العائلة المكانَ مقبرةً فمات أبي وكان قد أوصى أن ندفنَه هناك ففعلنا، ثم ماتت أمي فكانت بجوار أبي... وهكذا الأمر مع أبعاضِنا الأخرى التي فارقت الحياة فتركناها هناك، وكلما كبرنا كبرتْ المقبرة وكثرت الأجساد حول المزار بعد أن كان مكانًا قفرًا ليس فيه إلّا ذلك القبر الفذ.

أخذتني الحياة بعيدًا وغِبت عن البلاد خمسة عشر عامًا وحين عدتُ إلى المدينة ذهبتُ لزيارة قبري أبي وأمي فوجدتُ المزارَ مهدَّمًا متناثرَ الأحجار، والقبرَ مكشوفًا باديًا للعيان بلا قُبّة، وبجدرٍ مهدمة ورُكنٍ مشروخ، وحين سألت: مَن فعل ذلك؟ قيل أنَّ جماعةً من المتطرّفين فجَّروه وبقيةَ مزارات المدينة لأنه بعقيدتهم نوعٌ من الشِّرك.

أيقنتُ حينها أن الضعفاء وحدَهم مَنْ يحاربُ الميِّتين، وأن القبور لا تردُّ الشرور، وأن الطمأنينة باقية حول أرواح الطيبين لا تحتاج إلى جُدُرٍ وقُبَّة.

فِي حُزنِها سُمُوّ

قِصَّة:

صَفا عاطِف

أصْبحتُ قاصّةً دونَ أنْ أعلَم، ولا أدري إنْ كان الفضل لها! ولكن ليتني لم أصبح كذلك!

انْقلبتْ حياة عائلتي بأجْمعِها فجأة يومَ تغيَّر حالُها.. لم يُعجبني دور المتفرِّج، ولكن ماذا عسايَ أفعل؟!

كانت زيارات الأقارب والأصدقاء لا تنقطع عن بيتنا، لبشاشة والِدَيّ وحبِّهما العلاقات الاجتماعية..

والدِي مهندِس، ووالدتي معلِّمة؛ لدَيّ أربعة إخوة، وأخت واحدة هي أكبرُنا.. علاقة والِدَيّ مبهرة وجميلة، كلاهما أصدقاء لنا لا نفضّل أحدهما على الآخَر.

تخرّجتْ مُنَى في الجامعة ولم ينفكّ المتقدّمون لخطبتها عن التقدّم لطلب يدها للزواج، فهم كذلك منذ بلوغها.. كانت جميلة، وفوق جمالها خفة دمها، وحبها للناس، وعلاقاتها التي تعدّت علاقات والِدَيّ، والابتسامة التي لا تفارقها إلا قليلًا.. ولكن يبدو أنّ نصيبها لم يحن بعْد.

انتقلَ للسكن إلى جوارنا أقارب والِدي، وقام بدعوتهم بعد سكنهم بأيام قليلة، كانت جلسة جميلة وحضورهم خفيف الظلّ.

توالت الزيارات وتوطّدت العلاقة أكثر، حتى تقدّمت الخالة سلمى لتطلب يد أختي منى لابْنها يوسف.. علمْتُ منذ وقتها أن منى ستوافق، لملاحظتي نظرات يوسف ومنى المتبادلة، كانا متقاربينِ في السنّ حيث كان يكبرها بسنة واحدة.

تمّ الزواج بعد سنة من الخطوبة، إلى حين اكتمال شقّتهما، وبقيّة التجهيزات؛ خلال هذه المدَّةِ تلألأ حبّهما أمام الجميع، ورأينا عيونهما التي كانت تلمع فرحًا، ولمسنا توافقهما الذي لم يكن متوقَّعًا على هذا النحو.

كانت منى تتخيّل يومَ الزفاف طوال الوقت، تصفه ويدَيها تتراقصان، وكان يوسف يزورها كلّ يوم في فترة الخطوبة، وأغلب الأيام يصطحبها خارج المنزل فتعود تكاد تحلّق من السعادة.

جاءت ليلةُ الزفاف وكانت أجمل ما شهدتُ من الحفلات في حياتي، كان جميع الحاضرين سعداء، أفرطنا في الرقص والضحك، حتى تفاجأنا بتعدّي الوقت منتصف الليل.

جلسنا في اليوم التالي نتكلّم ونَصِف الحفلة، وأمي تقول: كان الحضور فرحِين جدًا وأثنوا على كل شيء وسعداء بأنّهم شاركونا، حتى أنهم مِثلنا لم

ينتبهوا إلى مرور الوقت.

صارت منى تأتي لزيارتنا بين الحين والآخر.. زيارات قريبة من بعضها، تبدو عليها السعادة والراحة، وعلاقتها بأهل زوجها جيّدة -أيضًا-.

بعد شهر من الزواج بدأت أمي تسألها: ألا يوجد شيء في الطريق؟ فتجيبها: لا، ما زال باكرًا.

وهكذا حتى مرَّت ستة أشهر منذ زواجها، أصبحت زيارات منى ويوسف تقل شيئًا فشيئًا؛ فانتاب القلق والدَيَّ، صارا يسألانها، فتجيب بأن يوسف مشغول جدًّا هذه الفترة. ثم انقطعت زيارات يوسف لنا تقريبًا، بعد أن كانت كثيرة، حيث كان يتسلى مع إخوتي وأبي ويقول إنها من أجمل أوقاته.

علاقتي بمنى علاقة جميلة، فهي صديقتي وأختي، بدأتُ أخاف وأنا ألاحظ اختفاء ضحكاتها تدريجيًا، حتى تحولتْ إلى ابتسامات خفيفة جدًّا، أغلبها مجاملات وهروبًا من أسئلة أمي.. صرت أشتاق إلى الجلوس معها، مكالمتها، نصائحها، دعائها لي وتفقّدها إيّاي.

في أحد المساءات رنّ جرس الباب، فإذا بمنى مع حقيبتها، ساد الصمت.. لا أحد يعلم ماذا يمكن أن يقول...

استجمعت أمي قواها وأخذت منى إلى الغرفة، خرجت أمي بعد فترة ليست بالقليلة لتخبر أبي قائلةً: إن زواج ابنتك الذي لم يبلغ السنة قد انتهى،

وحاولتُ دون جدوى لأعرف السبب، ولكن ابنتك لا تزيد على أن تقول بأنهم لم يتّفقوا!!

نهض أبي ليكلِّمها، ولكنَّ أمي أشارت إليه بالجلوس، وطلبت منه أن يعطيها بعض الوقت، لعلّها تتكلم.

مرَّ يومان ولا خبر ولا سؤال من يوسف، عاد أبي ليكلِّم منى، ولم يُفلح في أخذ شيء جديد منها.. ترجّتْهُ أن يتفهّمها وقالت له: أبي، أنا أحبه، وهو كذلك، ولكن يستحيل الاستمرار، وقد اتفقنا على الطلاق.

بدأ صبر أبي وأمي ينفد، ولكن ما أسكتَهُما هو تدهور حالة منى الصحية جدًا.. انعدم كلامها تقريبًا، وقلّ طعامها وبالتالي وزنها بشكل ملحوظ ومخيف.

بعد أسبوع من مجيئها، وصلت ورقة طلاقها.. هنا أدرك الجميع أن المسألة حقيقة، ولا تراجُع عنها!

استدعى أبي يوسفَ وجلسَ معه، فلم يزد على ما قالته منى حرفًا واحدًا، حتى أنه لم يطلب رؤية منى، وطلب الخروج سريعًا.

اتصلت أمي بوالدته، فعلمتْ أنهم أيضًا متفاجئون ولا يعلمون أكثر ممَّا نعلم.

ازدادت حالة منى سوءًا يومًا بعد يوم.. حاولتُ مساعدَتها بشتَّى الطرق.. دعوتُ صديقاتها وكل من تحبهم ويحبونها، ولكن دون جدوى.. حاولتُ

إخراجها من المنزل عدة مرات.. وإلى أماكن مختلفة، وكل مئة مرة أطلب منها قد توافق مرة، وقد لا توافق أصلًا.

مرّت سنة منذ افترقا، كأنّ منى دخلت خلالها في غيبوبة، توقفت فيها عن الكلام نهائيًا، وطعامها بالكاد يجعلها تقف وبالتحايل من أمي.

لم أعد أرَ دموع منى، حتى بلغ بي الأمر أن أسترق السمع ونحن نائمتان والأضواء مطفأة لعلي أسمعها تبكي.. فلم أسمع!!! حتى حركتها كانت قليلة جدًّا.. لم تعد منى التي نعرفها.. هذه ليست أختي.

خلال الأشهر الأخيرة اختفت أخبار يوسف تمامًا، لا أعلم إن كان إخوتي يرونه أم لا؟ لم تكن سيرته مرغوبة، ولكن الغريب أننا لم نكرهه!

مرت الأيام، وجاءت رفيف صديقة منى التي لا ننسى دورها في إرجاع منى إلى طبيعتها ولو قليلًا، ولكنّها لم تنجح أيضًا...

طلبت رفيف من منى أن تتقدّم إلى وظيفة في الشركة التي تعمل فيها، قد طلبوا موظفين بأعمار شابّة.. والصدمة أن الرد كان إيجابيًا من منى، حيث قامت وأعطت رفيف سيرتها الذاتية بصمت.. الجميع فرح وابتسم.. لم يصدق أحد ردة فعل منى.. فهذا يعدُّ شيئًا إيجابيًا، حتى لَكأَنّي لأول مرة أرى عائلتي تبتسم!

بعد عشرة أيام رن هاتف المنزل.. كان موعدًا من الشركة لمقابلة منى.. أخذها أبي في اليوم التالي، وخلال المقابلة تم قبول توظيفها في الشركة، وعلى

الرغم من ذلك لم يتغير حالها قطّ! بقيَتْ صامتة، هادئة، كأنها في غيبوبة، كنا نشكّ أنها ستستمر في وظيفتها طويلًا، ولكن مرت الأيام ومنى مستمرة في عملها، حتى أنها اعتادت النهوض مبكرًا، وأحيانًا تستيقظ قبل المنبه، وتقوم بتجهيز الفطور بكل هدوء، وتخرج للحاق بباص الشركة.

جاءت رفيف لزيارتنا بعد طول انتظار منا لنعرف منها وضْع منى خلال العمل بالتفصيل. بدأت رفيف بالكلام وبدا عليها التعجب، فأثارت فضولنا أكثر.

بدأت بسرد أحداث أول يوم عمل لمنى، وهو اليوم الأول لجميع الموظفين الجدد كذلك، وصفت الشركة وطبيعة المكاتب بأنها صالة كبيرة فيها مكاتب صغيرة تفصلها جدران زجاجية تجْمع الموظفين الجدد، لبدء مشروع جديد تم تعيينهم لأجله، والمفاجأة كانت أنّ يوسف هو أحد هؤلاء الموظفين أيضًا.. لم تنتبه منى إلى وجوده في اليوم الأول، على العكس من رفيف، حيث كان مكتبه على اليمين من مكتب منى بثلاثة مكاتب، ولكن جانب منى الأيمن يكون مقابل مكتب يوسف، لم يرتفع رأس منى عن الأوراق على المكتب منذ اليوم الأول وكأنها وجدت شيئًا تهرب إليه.. وهكذا إلى نهاية وقت الدوام.

أمّا يوسف فلم يزح عينيه عن منى أبدًا، ممّا أثار انتباه أغلب الموظفين.. الأمر الذي زاد من توتّر رفيف، فهي لم تصدّق -كما نحن- أنها استطاعت أخيرًا أن تُخرج صديقتها قليلًا ممّا هي فيه.

دخلت العائلة في توتر مجددًا.. مرَّ أسبوع ولم نلحظ أي تغيّر في وضع

منى.. على العكس، فقد ازداد.. حتى أنها لم تّعد ترَنا، ترجع من العمل، تأكل قليلًا، وتستحم، ثم تخلد إلى النوم، بعدها تصحو باكرًا للعمل، وفي نهاية الأسبوع تكون قد جلبتْ معها أوراق العمل إلى البيت.

علمنا من رفيف أنّ منى خلال كل الأسبوع لم تنتبه إلى وجود يوسف، على الرغم من أنّه لم يتوقف من النظر إليها بتعجّب، مستغربًا من وضْعها، وكأنها ليست هي..

صادفَ أنْ طلب المدير من يوسف إكمال عمله وإدماج الأوراق التي عنده مع الأوراق التي أكملتها منى من المشروع، فاضطرَّ أن يذهب إليها.. ألقى عليها السلام بصوت مرتجف، علمت أنه هو من صوته وتأخرت برفع رأسها، بعد لحظات رفعته بارتباك، وردت السلام، وقالت: تفضَّل. طلب منها الأوراق بارتباك هو الآخَر.

مضى على وظيفتها خمسة أشهر، تقول فيها رفيف: لم تنظر منى باتجاه يوسف أبدًا، حتى ظننتها نسيت وجوده في المكان نفسه، ولما نفد صبري سألتها عنه: ألا تعلمين أنه موجود؟ فأجابت: أعلم.

ظننا أنها سوف تترك العمل.. لم تفعل!

قلنا ستتغيّر.. لم تتغير!

سيحدث شيء بينهما.. لم يحدث!

أخبرتنا رفيف بأنَّ يوسف حاول التكلّم مع منى عدّة مرات، ولكنه يتراجع عندما يراها هكذا.. وكثير من المرات حاولَ أن يوقفها في نهاية العمل قبل ركوبها الباص، ولكنها ترفض وتتهرَّب!!

بمرور الأيام صارت نظرات منى إلينا في البيت مختلفة، وبخاصة إلى أمّي، تتأمل الجميع بنظرات لامعة، تتكلَّم.. تتكلَّم كثيرًا، أما نظراتها إلى أمي فكأنها تعتذر منها لِما سبّبته لها من ألم وحزن وتوتّر.. صار الجميع يبتسم لها حين تنظُر إليه.. أمّي تقوم لحَضنها وتقبيلها..

لاحظنا بعد فترة سوء حالة منى الصحية، وتخبّطها في المنزل، وتعرّضها لنوبات دوار شديدة، حتى أني أمسكتها أكثر من مرة كي لا تقع، وأخبرتُ والدَيّ بذلك، حاولوا أخذها إلى الطبيب ولم توافق، حتى أغمي عليها ونقلناها إلى المستشفى.. بعد الفحوصات والتخطيط، حضر الطبيب لإبلاغنا بحالتها...

أخبرَنا بأنّ قلبها متعب جدًّا، وتحتاج إلى العناية، وكتب لها أدوية، وتمَّ إخراجها من المستشفى.

تغيّبَتْ عن العمل بإجازة.. لم يصبر يوسف يومين حتى سأل رفيف عنها.. فأخبرته أنَّ منى في إجازة لظروف خاصة.

سمعنا بعض الإشاعات أن يوسف لم يستطع الابتعاد عنها، وينوي التقدّم لها مجددًا، ولكنه خائف من ردة فعلها، وقد شاهده البعض وهو يتبعها إلى باب

المنزل أحيانًا، بالإضافة إلى نظراته التي علم بها جميع من في العمل.

انتهت إجازة منى بعد عشرة أيام، وعادت إلى العمل، وعلى الرغم من أنها لم تكن تكلّم أحدًا، إلا أن الجميع يحبها لهدوئها وأخلاقها، فتمَّ الترحيب بها بأجمل وجه، ومديرها الذي يحترمها لجهودها ونزاهتها في العمل.

عادت إلى روتينها: تستيقظ باكرًا.. تجهّز الفطور.. تذهب إلى العمل...

في إحدى الليالي، قبل نومها، جاءت وقبّلت أمي من رأسها وعينيها وخديها ويديها، وسقطت دموعها بعد سنة من جفاف عينيها، ونطقت: "سامحيني أمي" فقط، قامت أمي باحتضانها، وقالت لها: على ماذا أسامحكِ يا نور عيوني.. الحمد لله على سلامتكِ..

قامت بعدها منى تبحث عن أبي فلم تجده، إذ لم يعدْ بعد، ونظرت إلينا جميعًا بحبّ، وخلدتْ إلى النوم.

في صباح اليوم التالي، عندما استيقظنا، تفاجأنا أن الفطور غير مجهَّز، بخلاف ما عوّدتنا أن تفعل!!!

ذهبتُ لأتفقّدها فوجدتها نائمة!!

أيُعقَل أنها لم تذهب إلى العمل؟!

حتى أنها تستيقظ قبل المنبه أحيانًا!

طلبت منّا أمي أن نتركها ترتاح وألّا نزعجها لعلها متعَبة، والقلق واضح على أمي تمامًا.

مرَّت ساعة وما زالت منى نائمة! بدأتُ أقلق أكثر، وأمي يزداد توتّرها، حتى طلبت مني أن أوقظها..

ذهبتُ مسرعة وأنا أنادي باسمها.. منى حبيبتي.. استيقظي..

ناديت باسمها ثلاث مرات ولكنَّها لم تجبني.. صرتُ أمسح على رأسها وأقول لها: هذه أول مرَّةٍ تتأخرين فيها عن العمل..

أنظُر إليها تبدو كالملاك، كطفل نائم.. بدأت أهزُّ يدها لتقوم، ولكن دون ردَّة فعل واحدة.. خِفت كثيرًا.. وناديت أمي بصوت مرتفع.. جاءت أمي تركض.. تصيح: ماذا هناك؟ ما بها منى؟؟ قلت: لا تُجيب!!

بدأت أمي، ووجهها شاحب، بمدِّ يدها تتلمّس منى برفق.. تمسح على رأسها.. وتصيح باسمها: منى يا ماما.. قومي يا حبيبتي.. ما بكِ يا صغيرتي؟!

وعندما لمستْ خدها ثم يديها، انهارت أمي باكيةً..

اتصلَ أبي بالإسعاف فورًا..

عند وصول المسعفين أخبرونا بأنها غادرت الحياة منذ أكثر من ساعتين!!

انهار البيت في لحظة.. تَسلَّطَ عليَّ الاختناق، لم أعد أصرخ أو أتحرك نحو

أمي التي فقدت الوعي وسقطت أرضًا، أو أبي الذي وضع يده على قلبه وهو إلى جانب منى!!!

ذهبتْ بصمتٍ وببطءٍ.. لم يعلم أحد سبب طلاقها.. لم يعلم أحد سبب صمتها، وعدم الخروج منه حتى عندما ظهر يوسف مجددًا!!

ما الغيبوبة التي دخلتِ فيها يا منى وأخرجتِ الجميع من حياتكِ حتى يوسف؟!

رنّ الهاتف، وإذا برفيف تستفقد منى، فصُعِقَتْ بالنبأ من أخي.

مرّت أشهر على وفاتها، ولكنها لم تَمُت بالنسبة لنا، ما زلتُ أراها كل ليلة تنام على سريرها، لم نُحرِّك شيئًا من أغراضها.. نرى أمي تتكلم دائمًا، وحين نسألها مع من تتكلمين؟ تجيب بأن منى لا تفارقها.. طوال اليوم معها.. تقول ذلك وهي تبتسم وتدمع عيناها في الوقت نفسه!

أصيب أبي بعد وفاتها بالسكّري.

أخبرتنا رفيف، بعد ذلك، أن يوسف في اليوم الذي توفيت فيه منى، كان قد عزم هو وأهله الحضور لخطبتها من جديد..

عندما علم يوسف بوفاتها دخل بنوبة سكات، كالتي حدثت لمنى وأشدّ، حتى أنه لم يبكِ قط!

يقول أبي وإخوتي أن يوسف كان يتفرّج من بعيد، والصدمة أوضح ما يبدو عليه، وكان يتفرّج كالخائف من أن يقترب.. يتفرج من بعيد عند تغسيلها.. عند الصلاة عليها.. عند دفنها.. وطوال أيام العزاء.. حتى أشفق عليه الجميع..

سمعنا بعد فترة من حارس المقبرة، أن يوسف يزورها كل يوم أربعاء وهو يوم وفاتها واليوم الذي عزم فيه على خطبتها من جديد.. ويضع الخاتم على قبرها ويبقى صامتًا، ولا يبكي أبدًا، وأحيانًا ينسى نفسه وينام إلى جانب القبر حتى يوقظه الحارس ويوصله إلى خارج المقبرة.

خسر يوسف وظيفته بعد ذلك بسبب ما آل إليه حاله..

انقطعت أخبار يوسف تمامًا، وبخاصة بعدما غادرنا المنزل والمنطقة بأكملها، لسوء وضع أمي يومًا بعد يوم.. حيث ازداد حديثها مع نفسها بأنها ترى منى وتسمع صوتها في البيت كله.

تزور أمي قبر منى بين فترات متباعدة، وأخبرَها الحارس أن يوسف ما زال يأتي إلى المقبرة، وسمعه أخيرًا قد انفجر بالبكاء، وهو يصرخ باسمها.

بقي وضعها وصمتها وطلاقها ووفاتها ألغازًا محيّرة، لن ننسى خفّتها وابتسامتها أبدًا، وما زلتُ أحتفظُ ببعض أغراضها وكتاباتها وعطرها.

لن أنساكِ يا أختي وصديقتي وحبيبتي... رحمكِ الله.

يا سَـيِّد الثَّقلَين

شعر:

عامر الرقيبة

كمْ مِن مديحكَ عامدًا أتهرّبُ ... وأنا الـذي بهـواكَ قلبي مُعـشِبُ

يهـفو إليكَ الشِّعـرُ وهو بخاطري ... لكنْ إذا استنطقتُه يتـهيَّـبُ

لجلال قَدْرك في الحروف مهابةٌ ... وكأنها من نفسِهـا تتـعَـجَّـبُ

ويزيد بين المادحينَ تعجُّبي ... أنّـا بمدحكَ لا نملُّ ونـتـعـبُ

فكأنَّنا بين التهيُّبِ والهوَى ... كالحبل شُدّ وليـسَ ثمّةَ أغلَبُ!

يا سيِّدي عُذرًا فـإنّ مديحَكم ... قَزَمٌ أمـامَ سـموّكـم محـدودبُ

لكنّ حُبَّك قد علا بقلوبنا ... حتّى اشمخرّ وغارَ منه الكوكبُ

ولربَّما عَجِب الوَرى مِن أمّـةٍ ... مَـغـلـوبةٍ إسلامُهـا لا يُغْلَبُ!

بقلوب ملـيارٍ ونصفٍ حبُّـكم ... تتـقـلّب الدنيـا ولا يتقلّبُ

للعالمينَ بُعثْتَ طُرًّا رحمةً ... رَغِـبَ الأنـامُ بذاك أم لم يرغـبوا

قد لا تعي الصحراءُ ما نفعُ النَّدى ... جهلًا ويُنكِرُهُ ثـراها المُجـدبُ

ومن الرحابةِ ربـّما اغترّ الفضا ... لـكـنّ قـلـبَـك رغـم ذلـك أرحبُ

مِن نور هَدْيـكَ تستـنيرُ عـقولُنا ... ويَرينُ فـيها من سـواكَ الغـيهـبُ

حرّرتَ بالتَّـوحيد أفـئـدةَ الورى ... مـن شِـركِ آلـهـةٍ بـهِ تتـذبذبُ
بالصبر والعـزم ابتنيتَ حضارةً ... وبحـمـلـهـا لـلـنـاس هبّتْ يَعـربُ
رسّختَ في الإنسانِ قيمةَ نـفسِه ... ما أهونَ الإنسـانَ لو هيَ تـُسـلبُ!
ساويتَ بين الناس حتّى لم يَعُدْ ... فضلٌ سوى التقوى لنفسٍ يُـحسَبُ
ما كنتَ بـِـدْعًا بل رسـولًا خاتمًا ... والـنـاسُ فـيـكَ مصدّقٌ ومكـذّبُ
هيَ سُـنّةُ الله التي فيهـا ابـتـلى ... كلَّ الذين خَلَوا وفيهـا عُذِّبوا
موسى وعيسى والعزيرُ ويوسفٌ ... للهِ كُـلٌّ عـابـدٌ مُـتَـؤوّبُ
لا فـرقَ بين الأنـبـياءِ جمـيعِهم ... ولهمْ بألسـنـنا ثنـاءٌ طـيِّـبُ
فـلـيعـلـمِ الـغِرُّ الحـقـودُ وقومُهُ ... أنّـا بـنَـهـج المصطفَى نـتـأدّبُ
وليحـذرِ المستهزئونَ بِرَسْـمِهِ ... مِن بطش جبّارٍ علَيهم يَغـضَبُ
حسـبـوا بأنّ صـنيعـهـم حريـّةٌ ... تَعِسَ الـشـقيُّ بما يظـنُّ ويَحسِبُ
إنْ كان كُـلٌّ في هـواهُ مـجـدِّفـًا ... جَهلًا فكيفَ تُرى سينجو المركبُ؟!
يا سـيّـد الثقلين يا بدر الدجى ... عذرًا فإنّي لسـتُ ممّنْ يُطْـنِبُ؟
فيَراعتي جفّتْ ولكنْ دونها ... قلبي بحِبْر ثَـنـائـكمْ مترطّبُ
وكـأنَّمـا هَذي السّطورُ أخطُّها ... بِـنياط قلـبي لا بـكفِّي أكتـبُ
كثرت ذنوبي ليس لي يا سـيّـدي ... منها سِواكم في الشفاعة مَهْرَبُ
أنـتَ المُشَفَّعُ والشّفيعُ المُرتَجى ... وبحُبِّكم يرجو السّماحَ المُذنِبُ

قدوم خير الناس

شِعر:
د. محمَّد غسَّان الخَليليّ

في الْتماسٍ قدومًا خيرَ إِنْسٍ ... رامَ صحبٌ تشوقًا خير أُنْسٍ

فتراهم على العوالي قيَامًا ... قَد أداموا تَشوقًا فَجرَ شَمسٍ

حُجبتْ شمسُهُم فَردَّ عليهم ... نورَهَا كلُّ ثاقبِ الرأيِ نَطْسٍ

في اشتياقٍ حتَّى إذا طَلَّ ظِلٌّ ... لحبيبٍ تهفو إليهِ كُلُّ نفسٍ

من محبٍّ يهوى قدومَ بعيدٍ ... وشغوفٍ، مدَنَّفٍ قيدَ حبسٍ

تحسبُ العينُ أنهُم قد تُوفُّوا ... من شغافٍ يُصيبُ صَبًّا بمَسٍّ

يَغتَلي فيهمُ ارتيابُكَ حتَّى ... تتقرَّاهم يداكَ بِجَسٍّ

حُلُمٌ راقَ للصِّحَابِ طويلًا ... وهْو في عَتمةِ الخَيَالِ المُنَسِّي

وإذا طارفٌ يلوحُ على الأفْـ ... ـقِ لحوحًا على اغترافٍ، وقبسٍ

يَا أَبَا القَاسمِ المُفدَّى أغثنَا ... بعَطَاءٍ منَ السَّمَا ليسَ يُنسي

ضُمَّنَا، ضُمَّنَا إليكَ فإنَّا ... قد عزمنَا فِدًا بمَالٍ وَنَفسٍ

كانَ يومًا من النعيمِ فريدًا ... إذْ يدواي اللِّقَاءُ أسقامَ بؤسٍ

يَا رَعَى اللهُ مَا أَصبحَ منهُ ... وَسَقى نـــورَهُ الحَيَا ما يُمسِّي

قريةٌ لا تُرامُ في الأرضِ صَارَتْ   تُمسِكُ الأرضَ أن تِميدَ، وتُرسي

أَصبَحَتْ درَّةَ البلادِ وَأَمسَتْ   في قـــدومٍ لأحمدَ دَارَ أُنْـسِ

كَانَ حلْمًا منَ الخيالِ جَميلًا   فَصَحَا القلبُ من طيوفٍ وَهَجسِ

فإذا النورُ نبضُها فيضَ صبحٍ   وإذا يثربٌ بها نورُ شمسِ

بلغَ النجمَ نورُهَا، وتباهى   بينَ بغدادَ في العرَاقِ، وقدسِ

فكأنَّ الرَّفيفَ في مسرحِ النُّــ   ــورِ تلالُ مُطرَّزاتُ الدِّمقسِ

كَسَنَا البرقِ إنْ منَ الضوءِ لَحْظًا   لَمَحَتْهُ العيونُ من ذرِّ قَبْسِ

ومغانٍ على الدِّيَارِ وِضَاءٌ   لم تجدْ للعَشيِّ مكرورَ طَمسِ

فالثُّـرَيَّا مُـضيئةٌ والجـوَاري   يَتَـبَاهَـيْنَ فيـهِ أقمـارَ أُنْـسِ

طَلَعَ الصُّحبُ في مراسِمِ عيدٍ   في ابتهاجٍ كموكبٍ يومَ عرسِ

ذي ديَارٌ تروقُ سُكنَى كَخُلْدٍ   وَجَنًى دَانيًا كعنقودِ غرسِ

ليسَ تاريخُهُم لمن يَتَسَلَّى   كَانَ دَرسًا بهجرَةٍ؛ أَيَّ دَرسِ!!!

كَانَ دَرسًا منَ الحَضَارَةِ؛ رَمزًا   تَضحيَاتٍ منَ الأُلَى؛ مَا يؤسِّي

ذا أَبو بَكرٍ المُفدِّي نَبيًّا   ذا نَوَاةٌ قَد أَثمَرَتْ خَيرَ أُسِّ

يَا صروحًا منَ التُّقَى شَامخَاتٍ   يَا صِحَابًا إذْ نَاصروا خَيرَ إنسِ

بينَ أوسٍ وخرزجٍ إذْ تآخوا   مَعْ قَادمٍ منْ يَثربٍ؛ دَارِ عُرْسِ

حينَ وَافَى (مُحَمَّدٌ) دَارَ صَحبٍ   بَاتَ كُلٌّ مُردِّدًا ذَاتَ جَرْسِ:

طلع البدرُ علينا من ثنيات الوداع   وجب الشكر علينا ما دعا لله داع